عبد الوهاب البيّاتي

شاعر العشق والمنافي

موسوعة أعلام الشعر العربي الحديث

عبد الوهاب البيّاتي

شاعر العشق والمنافي

إعداد ودراسة: هاني الخيِّر

موسوعة أعلام الشعر العربي الحديث /عبد الوهاب البيّاتي/ شاعر العشق والمنافي

إعداد ودراسة: هاني الخيِّر

الطبعة الأولى: 2017

عدد النسخ: 1000 نسخة

الترقيم الدولي: ISBN 978-9933-22-111-9

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سورية – دمشق – جرمانا

هاتف: 5627060 11 963+

تلفاكس: 5632860 11 963+

ص.ب: 259 جرمانا

البريد الإلكتروني: www.darrislan.com

أستطيع أن أقول: إن دارس شعري يحتاج بالدرجة الأولى إلى مقدرة روحية، لاختراق الطبقات الشعرية التي تكوّنت بفعل الألم العميق والتأمل بمأساة الإنسان كما يحتاج إلى رؤية فلسفية، ولا أقصد الرؤية الفلسفية الكلاسيكية، ما تمَّ إنجازه في حقول الفلسفة، بل إلى رؤية فلسفية مستقبلية، وهذا ما يعود بي إلى القول: إن الناقد الحقيقي يحتاج إلى الانطلاق من المكان إلى اللامكان أو العكس بالعكس، وهذه عملية مضنية قد لا يقوى أو يقدر عليها أي ناقد.

عبد الوهاب البياتي



إضاءة

عبد الوهّاب البيّاتي : [1926 – 1999م]

شاعر العشق والمنافي

ولد الشاعر عبد الوهّاب البيّاتي العام /1926م/ في الريف العراقي من أسرة متوسطة الحال، وقد تأثر في مرحلة الصبا بالريف وأغاني القرية وأهازيجها العفوية الساذجة.

ثم انتقل للعيش في بغداد، وسكن بالقرب من مسجد الشيخ المتصوف عبد القادر الكيلاني، وتلقى تعليمه بمختلف مراحله في العاصمة العراقية التي كانت تموج بالقلق والثورة والصراع الفكري من أجل رسم ملامح الإنسان العراقي الجديد.

وتخرج من دار المعلمين في بغداد، حاملاً الإجازة العامة في اللغة العربية وآدابها العام /1950م/، وملماً بأشياء من الأدب واللغة الإنكليزية.

عمل في مجال التدريس في المدارس الثانوية العراقية، ثم انتقل للعمل في بلاط صاحبة الجلالة الصحافة، بصفة محرر في مجلة (الثقافة الجديدة) اليسارية التي أغلقتها وزارة الداخلية العراقية، وكعقوبة له بسبب مواقفه التقدمية الجريئة تم فصله من عمله التعليمي وفقد وظيفته دون وجه حق، ثم اقتيد إلى معسكر الاعتقال في (السعيدية)، وسجن حوالي العام، وكان ذلك بين عامي /1951 – 1952م/.

غادر العراق بعد خروجه من السجن قاصداً دمشق ومنها إلى بيروت.

وهنـاك أصـدر ديوانـه الشـهير (أبـاريق مهشـمة) فـي طبعتـه الثانيـة العـام 1955م.

وفـي العـام /1956م/ أقـام فـي القـاهرة، وأصـدر ديوانـه الثالـث وعنوانـه: (المجـد للأطفـال والزيتـون)، وفـي الوقـت ذاتـه عمـل كمحـرر ثقـافي فـي جريـدة (الجمهوريـة) القاهريـة. مـع التنويـه بـأن ديوانـه الأول وعنوانـه: (ملائكة وشياطين) صدر في بيروت العام /1950م/.

عاد عبد الوهّاب البيّاتي إلى العراق بعد قيام ثورة تموز /1958م/ ، التي أطاحـت بالملكيـة. وفـي هـذه الأجـواء العاصـفة أسـندت إليـه مهمـة مـدير التأليف والترجمة والنشر فـي وزارة المعـارف العراقيـة. كمـا انتخب عضـواً فـي الهيئة الإدارية لاتحاد الأدباء العراقيين.

أقام فـي الاتحـاد السـوفييتي السابق بـين عـامي /1959 – 1965م/ ، وفـي العام /1961م/ ترك العمـل فـي السـفارة العراقيـة فـي موسـكو، واشـتغل أستاذاً فـي جامعة موسـكو، ثم باحثاً علمياً فـي معهد شـعوب آسـيا التـابع لأكـاديميـة العلـوم السـوفياتية، وأتاحـت لـه هـذه المرحلـة الهامـة مـن حياتـه زيـارة جمهوريـة أوكرانيـا، وجورجيـا، وأذربيجـان، وأوزبكسـتان، وطاجكسـتان، ومعظـم أقطـار أوروبـا الشـرقية والغربيـة، والـدول الإسكندنافية..

اختـار عبـد الوهـاب البيّـاتي، المنـافي الاختيارية، وطنـاً لـه، فقـد عـاش فـي إسبانيا مـدة عشـر سـنوات كـاملـة بـين عـامي /1980 – 1990م/ ، وقبـل

ذلـك عـاش فـي بـرلين، وفيينـا ، وعمّـان، ودمشـق الـتي كـانـت محطتـه الأخـيرة، وتنفيـذاً لوصـيته تم دفنـه علـى سـفح قاسـيون بـالقرب مـن شـقيق روحـه الشـيخ الأكـبر محيـي الـدين بـن عربـي. وفـي هـذا السـياق يقـول البياتـي:

«أنـا منفـي داخـل نفسـي وخارجهـا ، مبصـر وأعمـى، ميـت وحـيّ فـي حـوار أبدي، صامت مع موتي فـي رحلـة الليـل بالنهـار... إن اليقظـة الـتي أعيشـها ، والوعي الحاد بالعالم والأشياء جعلاني أشبه بالشاهد والمتهم والقاضي».

ويعتـبر رحيـل الشـاعر العراقـي الكـبير عبـد الوهّـاب البيّـاتي فـي العـام /1999م/ ختاماً حزيناً لرحيل آخر أضلاع المربع الذهبي المتوهج بالضياء فـي الشـعر العربـي الحـديث، بعـد أن غـادر **بـدر شـاكر السياب، وبلنـد الحيدري، ونازك الملائكة،** الذين تخاصموا فيما بينهم حول ريادة الشـعر الحـديث، وقـد ناضـل البيّـاتي، بشراسـة، علـى سـاحة النقـد والمقـابلات الصـحفية والإذاعيـة والتلفزيونيـة، مـن أجـل وضـع اسمـه علـى لافتـة الريـادة التاريخيـة (الأب الشرعي) للقصـيدة الجديـدة الـتي استحوذت علـى اهتمـام الجمهور يومذاك (شعر التفعيلة).

وانضم إلى هذه الخصومة العديد من النقاد الكبار، لإعطاء شرف الريادة إلى واحـد مـن هـؤلاء، دون أن يقـدّموا الـدليل القـاطع المقنـع، ومـا يـزال السـؤال المشـروع مطروحـاً حتـى يومنـا هـذا ، بـالرغم ممـا أعلنـه، بلهجـة الواثق، الشاعر أحمد عبد المعطي حجـازي، دون أدلّـة كـافيـة، ونـورد هنـا

ما ذكره استكمالاً للموضوع الذي طرحناه:

«... لم يكن البيّاتي أول روّاد حركة التجديد الشعرية. فقد سبقه مصريون منهم: أحمد زكي أبو شادي، وخليل شيبوب، وعلي أحمد باكثير، ولويس عوض، وعبد الرحمن الشرقاوي، كما سبقه عراقيون: نازك الملائكة، وبدر شاكر السيّاب. غير أن الروّاد المصريين لم يكونوا متفرغين كلهم للشعر، وربما كانت الكتابة بالنسبة لمعظمهم أهم من النظم، أما نازك الملائكة التي ولدت في أوائل العشرينيات وظهرت في الأربعينيات، فقد اعتبرت شاعرة رومانتيكية رغم تجاربها الطليعية، أو اعتبرت مخضرمة، فلها قِدَم في الشعر الرومانتيكي، وقدم في الشعر الحر، وربما كان السيّاب أولى بالريادة الأولى، تؤهله لذلك موهبته الكبيرة وتجاربه المبكرة ونضجه المطَّرد، غير أن تجارب السيّاب الأولى كانت عادية، وكان انسحابه من صفوف حزب الشيوعيين العراقيين في أوائل الخمسينيات، بداية لحملة عنيفة شنّوها ضده وحصار مميت أحكموه من حوله، في الوقت الذي توجوا مكانه شاعراً آخر تقدم بسرعة ليملأ المكان الشاغر بشعره وذكائه العملي، هو عبد الوهّاب البيّاتي».

وخلاصة القول... وباطمئنان شديد... أستطيع أن أقول: إن الريادة لا ترتبط بواحد من هؤلاء الشعراء؛ لأن هناك شعراء في سورية، وفلسطين، كان لهم، أيضاً، شرف الريادة من خلال نماذج شعرية مبكِّرة قدّموها في

الأربعينيـات، دون أن تسـترعي الانتبـاه، بسـبب ضـعف التواصـل الثقـافي وتبادل المطبوعات بين الدول العربية الخاضعة للاحتلال الأجنبي.

لقد ظهر عبد الوهّاب البيّاتي الملقب بـ(أبي علي) في الخمسينيات من القرن العشرين، هذه الحقبة كانت تزدحم - على حدّ تعبير البيّاتي نفسه - بالموهوبين والأدعياء، والأنقياء والأشرار، والأبطال الصامتين والجنباء، والنشطاء والكسالى، ومزيفي التاريخ، والعملة الورقية، ومنتحلي البطولة الدونكوشوتية.

لذلك فمن التعسف أن نخضع البيّاتي لمقاييس النقد الأكاديمي الصارم؛ لأن شخصيته تكشف لنا أننا أمام قامة شعرية عالية، وحالة أسطورية نسجها بعض النقاد الكبار عنه، قلّ نظيرها في دنيا الشعر، ثم مرَّ بعد ذلك في تحولات متلاحقة لا تعرف الثبات، أبهرت قراء شعره، وجعلتهم ينتشون بروعة هذا الشعر الصافي العظيم، الذي يحمل رسالة حضارية إلى الأجيال:

أغنية إلى ولدي علي

ولدي الحبيب

ناديت باسمك، والجليد

كالليل يهبط فوق رأسي، كالضباب

كعيون أمك في وداعي، كالمغيب.

ناديت باسمك.

في مهب الريح

في المنفى

فجاوبني الصدى: «ولدي الحبيب

والقاتلون

يحصون أنفاسي، وفي وطني المعذب يسجنون

آباء إخوتك الصغار

ويبشِّرون

بالعالم الحرّ، العبيد

وبمعجزات

دولارهم - أمل الشعوب -

وواهب الموتى، الحياة

ويروّعون الأمهات

ويخضبون

رايات شعبك، يا صغيري بالدماء

وأنتَ لاهٍ، لا تجيب

لاهٍ بلعبتك الجديدة، لا تجيب

وعيون أمك في انتظاري، والسماء

والليل في (بغداد) ينتظر الصباح

وبائع الخبز الحزين

يطوف في الأسواق، والعميان والمتسولون

يستأنفون على الرصيف

تلاوة الذكر الحكيم

ووراء أسوار السجون

يستيقظ الشعب العظيم

محطماً أغلاله ، ولدي الحبيب

وأنتَ لاهٍ لا تجيب

الريح في المنفى تهبّ، كأن شيئاً فيَّ مات

إني أبارك، يا صغيري، رغم قسوتها، الحياة

فأنا وأنت لشعبنا ملك، وإن كره الطغاة

ويمتزج شعر عبد الوهّاب البيّاتي بصورة عامة، بالأسطورة، واستنطاق التراث العربي الإسلامي شعرياً وموسيقياً، وبالأسئلة الفلسفية الكونية الكبرى، وبالإشراقات الروحية الصوفية(*) المعمقة، من خلال لغة رومانسية عاطفية متدفقة في بدايات مسيرته الشعرية المظفرة، وصولاً إلى تكثيف شعري حار يلامس جوهر الحياة والوجدان وأغوار النفس المتوارية خلف الخلجان السرية:

❖ يقول البياتي: كنت أحاول ولا أزال أن أكتفي بكتابة الشعر، بل أن أعيش حياة صافية كالمتصوفة.

جلال الدين الرومي

«أصغِ إلى الناي يئنُّ راوياً ...»

قال جلال الدين

النار في الناي

وفي لواعج المحبِّ

والحزين

الناي يحكى عن طريق طافحٍ بالدم

يحكي مثلما السنين

«شيرين» يا حبيبتي

«شيرين»

دار الزمان

احترقت فراشتي

تَغَضّن الجبين

وانطفأ المصباح ، لكني مع السارين

مع المحبين، مع الباكين

أحمل أكفاني

يئنّ راوياً

قال جلال الدين:

«مَنْ راح في النوم سلا الماضي»

مع الباكين

«شيرينُ» يا حبيبتي

«شيرينْ»

وقد كان الشاعر عرّاف ومتنبئ ورائد هذا الأمر، حيث دوَّن نبوءاته ورؤاه على ألواح الطين، وأوراق البردي، وفوق شجر الخابور - على حد تعبير الناقد طراد الكبيسي - بصور وأشكال متعددة: رقى وتعاويذ، وأشعار وأغنيات حبّ وعمل... أثبت فيها وجهَيْ الحياة والأشياء، وأدرك ما خبأه المقدور:

المستحيل

يأتي مع الفجر ولا يأتي

حبي الذي أغرق في الصمت

يحوم حول السور مستجدياً

تنهشه مخالب الموت

حتى إذا ما اليأس أودى به

صاح من الأعماق: يا أنتِ

سفينة الأقدار لم تنتظر

وسندباد الريح لم يأتِ

من أين أقبلتِ؟.. وآبارنا

مسمومة. من أين أقبلت؟

لعلّني كنتُ على موعد

من قبل أن أولد، أو كنتِ

الحبّ أعمى، وأنا هاهنا

أكتب فوق الماء ما قلتِ

ربيعنا أقبل من رحلة الـ...

... ضياع والأحزانِ والمقتِ

تسبح في النور فراشاته

فلتفتحي الأبواب يا أختِ

حبيبتي من قبل أن تولدي

أحببت عينيك:

فمن أنتِ؟!

مؤلفاته وأعماله الشعرية:

- ديوان ملائكة وشياطين، بيروت، 1950.
- ديوان أباريق مهشمة، بغداد، 1954.
- ديوان المجد للأطفال والزيتون، القاهرة، 1956.
- ديوان رسالة إلى ناظم حكمت وقصائد أخرى، بيروت، 1956.
- ديوان أشعار في المنفى، القاهرة، 1957.
- بول إيلوار مغني الحب والحرية، كلود روا، تعريب، بالاشتراك مع أحمد مرسي، بيروت.
- أراجون شاعر المقاومة، مالكولم كولي وبيتر .ك. رودس، تعريب، بالاشتراك مع أحمد مرسي، بيروت، 1959.
- عشرون قصيدة من برلين، بغداد، 1959.
- ديوان كلمات لا تموت، بيروت، 1960.
- محاكمة في نيسابور مسرحية في ثلاثة فصول، بيروت، 1963.
- ديوان النار والكلمات، بيروت، 1964.
- ديوان قصائد، القاهرة، 1965.
- ديوان سفر الفقر والثورة، بيروت، 1965.
- ديوان الذي يأتي ولا يأتي، بيروت، 1966.
- الموت في الحياة، بيروت، 1968.
- تجربتي الشعرية، بيروت، 1968.

- ديوان عيون الكلاب الميتة، بيروت، 1969.

- ديوان بكائية إلى شمس حزيران والمرتزقة، بيروت، 1969.

- ديوان الكتابة على الطين، بيروت، 1970.

- ديوان يوميات سياسي محترف، بيروت، 1970.

- ديوان عبد الوهاب البياتي في مجلدين، بيروت، دار العودة، 1972.

- ديوان قصائد حب على بوابات العالم السبع، بغداد، 1971.

- صوت السنوات الضوئية، بيروت، 1979.

- ديوان مملكة السنابل، بيروت، 1979.

- ديوان بستان عائشة، بيروت، 1989.

- كتاب «عبد الوهّاب البيّاتي: كنت أشكو إلى الحجر..»، وهي مجموعة حوارات أجرتها مع الشاعر شخصيات عربية معروفة، 1993.

- كتاب المراثي، عمان، 1995.

- ديوان الحرائق وقصائد أخرى، تونس، 1996.

- كتاب مدن ورجال ومتاهات، بيروت، 1998. (مقالات وانطباعات).

- البحر بعيد أسمعه يتنهد، عمان، 1998.

- بكائية إلى حافظ الشيرازي (قصيدة للشاعر وملحقاتها) بيروت، 1999.

- تحولات عائشة، بيروت، 1999.

- ديوان نصوص شرقية، 1999.

بقي أن نذكر بأن العديد من دواوينه الشعرية صدرت بلغات عالمية، بعد ترجمتها إلى تلك اللغات وهي: الروسية، والصينية، والفارسية، والبلغارية، والإسبانية، والإنكليزية، والفرنسية، والتركية، واليوغسلافية. وكذلك صدر في دمشق العام /1958/ عن دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، كتاب (عبدالوهاب البياتي رائد الشعر الحديث)، اشترك في تأليفه نخبة من النقاد والأدباء والشعراء العرب نذكر منهم: الدكتور علي الراعي، ومجاهد عبد المنعم، وصلاح جاهين، وعبد الرحمن الشرقاوي، وميشال سليمان، وإحسان سركيس. هذا فضلاً عن كتاب آخر عنوانه (مأساة الإنسان المعاصر في شعر عبد الوهاب البياتي)، اشترك في تأليفه: ناظم حكمت، د. كارل بتراجك، محمود أمين العالم، رجاء النقاش، نزار قباني، ملك عبد العزيز، د.شكري عياد، د. غالي شكري، د. ز. دوليس ، جيلي عبد الرحمن، صبري حافظ، سعيد عقل، وغيرهم... من الأعلام الكبار.

وخلاصة القول في هذه الإضاءة:

يظل شعر البياتي، لاسيما في دواوينه الأخيرة، التي شهدت، بامتياز، تحوّلاته الشعرية الرهيفة، وتجلياته العرفانية الذوقية، الشعر الأجدر بالبقاء والخلود في ديوان الشعر العربي، لتفرده بالفيض الرحماني والسمو الوجداني والوعي المعرفي، واستحضار تجارب البشرية عبر عصور التاريخ.

عبد الوهّاب البيّاتي

في مرآة الحوار

الحوار الأول

❖أنت ذاهب إلى دمشق بعد إقامة في عمان دامت سبع سنوات، ما الذي يغريك بالرحيل؟

❖❖ يغريني أن أكون قريباً من وطني، وأن أتنصت إلى الأمس الذي ما يزال يدور هناك. من دمشق، كما من عمان أبقى أصغي إلى التأوهات وأستمع إلى دقات قلوب الأصدقاء والأحبة.

❖ وهل المدن في نظرك مجرد محطات عابرة في حياة المرء، هل هي جغرافيا فحسب...؟

❖❖ بعض المدن لا تعدو أن تكون مدناً صناعية تشبه الكرتون، كالتي بناها السياسيون المحترفون، ولذلك فإنَّ هذه المدن تبقى عرضة للموت في كل الأحوال. هناك مدن شاخت وصارت إلى الموت أقرب منها إلى الحياة، وهناك مدن لم تولد بعد، حتى إنني شبهت نفسي بأنني كنت أولد في كل مرة تولد فيها مدن جديدة؟!..

❖❖ ولكن وأنا الآن أحمل بين يدي ما نيّف على السبعين أحدّق في المدن، فأرى الزمن قد جار على البشر في كل مكان، وحرمهم من السعادة، وتسلطت على مصير البشرية قوى عمياء جشعة لا تعرف رحمة،

فتلوث البيئة وتقتل الفرح. وفي غمرة ذلك لا مندوحة من تراجع البهجة والشعر، رغم الرغبات الحثيثة للبحث عن كواكب أخرى من قبل القوى الدولية العظمى، التي تبذل في سبيل ذلك أموالاً خرافية، في حين أنَّ ثلاثة أرباع سكان الأرض يعيشون في البؤس والجوع، ويتحولون إلى قبائل رحل من جديد كأنهم يوشكون على الانقراض.

❖ يعني أن المدنية انحسرت لصالح قوى الهيمنة والتسلط؟

❖❖ ليتها تكون في هذه الحدود، بل غدت مقبرة كبيرة في إطار المقبرة الكونية العظمى، والسياج الفاصل بين المقبرتين هو سياج الموت، ولذا تراني كففت عن معاينة المدن ذات الجدران الصماء التي لا تحجب، فلجأت إلى عالم الإنسان الداخلي، وإلى أطلال المدن التي ماتت، وإلى الأنهار التي جفت، والآبار التي نضبت، لكي أسمع من خلالها أنّات البشر الذين ضاعوا أو ضيّعوا.

❖ أنت هكذا تتشبث بالزائل والمنقرض، أية نبرة يأس وجودية تتملكك؟

❖❖ ليس اليأس بالمعنى السوداوي، ولكن يقتضي القول: إنني لا أعرف الآن أين ولدت؛ لأن الإنسان قد يولد أحياناً في ضريح أو في عربة أو في زورق أو في عاصفة. أتذكر قول المتنبي دائماً: «وكل مكان ينبت العزّ طيب»، ولا أتذكّر مكاناً ينبت العز، فكل الأماكن، وكل المدن أنبتت الشرور والأمراض والتعاسة والفاقة لملايين البشر، وحرمتهم من نعمة البصيرة والبصر.

❖ رصدت شعرك في إحدى مراحلك الحياتية لمديح الثورة والعدالة، وقد ترافق ذلك مع صداقتك لشعراء عالميين كبار. الآن بعدما تآكلت الثورات وغاب أو يكاد طيف العدالة، ما الذي يتبقى من تلك الأشعار؟

❖❖ لم يكن شعري مديحاً للثورات بقدر ما كان مديحاً للبشر الذين أشعلوها، حيث استفدت من عذاباتهم وتنهداتهم وطموحاتهم ووضعتها في خدمة شعري، ولم أفعل العكس، بمعنى لم أنظم قصيدة مناسبة سياسية قط في حياتي تخدم أهدافاً عاجلة أو سريعة أو ظرفية، حاولت دائماً وأبداً الربط بين فكرة الثورة والموت، والثورة المستمرة، أي أنني كنت أؤمن بالثورة المستمرة، ثورة الإبداع في قاع التاريخ، وكنت لا أميل إلى السياسيين الذين يزيّفون الثورات ويسرقونها حتى إنني قلت في قصيدة لي: «ثورة الفقراء يسرقها في كل الأزمان لصوص الثورات».

وقد ظهر أن انعكست هذه الظاهرة في ديواني «يوميات سياسي محترف» في نهاية الستينيات من القرن العشرين، بعدما تسبب السياسيون المحترفون بشلّ الكثير من المشاريع الثورية العربية، وبعدما فشلت الكثير من ثورات العالم التي كانت مرتهنة بمراكز قوى كبرى. وهذا ما كنتُ أحسّ به منذ بداية الستينيات، كنت أرى الجروح والشروخ والبثور في كل مكان كما أنني رأيتُ الكثير من المدن التي سميت بالفاضلة، وإذ هي صورة طبق الأصل عن المدن غير الفاضلة، أو كما قلت في عنوان قصيدة لي: «الليل في كل مكان» من ديواني: «الذي يأتي ولا يأتي».

وفـي اعتقادي أن السياسـة هـي علم المستقبل، وعلـم الجـدل، وعلـم الرؤيـة القائمـة علـى الحـدس العلمـي الـذي يقـترب مـن العلـم، ومـن دون ذلـك فـإن الإنسان يغرق فـي الهلوسة والعدمية والتفاهة والإفلاس المادي والروحي.

❖ **وهـل أفـدت مـن علاقتـك بـبعض الشـعراء العـالميين فـي تنميـة الشـعور الثوري في قصيدتك؟**

❖❖ ربما على رغم أنـني لم أكـن أعـرف هـؤلاء الشـعراء سـوى بالاسـم فـي بادئ الأمر، حتى إنني قد ترجمت لبعضهم قبل معرفتي به مثل بابلو نـيرودا ونـاظم حكمـت وأراغـون، لكـنهم فيمـا بعـد احتفلـوا بـي احتفـاءً عظيمـاً. وقد ساعدني على معرفتهم الكاتب اللبناني كريم مروة، ثم تجدد لقـائي بهم وبسواهم عندما انتخبت لتمثيل العراق فـي مجلس السـلم العـالمي العـام 1958، حيـث جـاء انتخـابي بإجمـاع القـوى الوطنيـة واليسـارية العراقيـة، لتمثيلها فـي ذلك اللقاء العالمي الذي ضم كبـار الشـعراء والأدبـاء والفنـانين فـي العـالم: بيكـاسو، أراغون، روفائيل البيرتي، ونيرودا.

❖ **يقـال: إنـك نسـبت إلى نفسـك كتابتـك أول قصـيدة تفعيلـة فـي الشـعر العربي الحديث، هل هذا صحيح؟**

❖❖ لا أزعم هذا الزعم، فنازك الملائكة هي أول من كتب القصيدة التي تحـررت مـن عـروض الخليـل، وتبعهـا السـيّاب بعـد فـترة زمنيـة قصـيرة، ويمكــن أن يوضــع اسمــي بعــدهما. وأذكــر أن صــديقنا الراحــل بلنــد الحيـدري كـان يـداعبني أحيانـاً ويقـول لـي: لمـاذا لا تضـع اسمـي ولا تـورده

عندما تُسأل في حواراتك الصحفية عن الشعراء الروّاد؟! وكنت أقول له مبتسماً: إنني سأفعل ذلك في أول حوار يجري معي، وكنا نضحك.

وللتاريخ أقول إن بلند أسهم بهذا الشكل أو ذاك في ريادة القصيدة الحديثة وبخاصة في سنواته الأولى، وربما تلفت مساهماته أكثر مما تلفت مساهمات نازك بكثير، ولكن النقد لا يشير إلى ذلك، ربما لجهل النقاد ولعدم معرفتهم بما كان يدور في تلك السنوات التي يمتد عمرها إلى نصف قرن، ولعّل أغلب النقاد العرب المعاصرين قد تكون أعمارهم أقلّ من نصف قرن، أي أنهم ولدوا بعد أن قامت حركة الشعر الجديد بعشر سنوات.

❖ ولكنك برغم اعترافك بريادة الملائكة والسيّاب تصرّ على أن مساهمتهما كانت في البداية تاريخية أكثر منها إبداعية!

❖❖ ليست تاريخية بالمعنى الحرفي، ولكني كنتُ أعني أنه كان مشهوراً آنذاك بقصائده السياسية وأشعاره ذات المنحى الاجتماعي والمطلبي المباشر. ولم يكن معروفاً بوصفه ذا اتجاه حداثي مجدد، في حين لم تستطع نازك الملائكة أن تنتشل ذاتها وقصيدتها من نثر ذاتيتها وأناها الغارقة التي تكاد تكون منفصمة الصلة بالآخرين.

❖ بدأت والسيّاب صديقين، ثم انتهيتما خصمين لدودين ما سبب هذا التحوّل؟!

❖❖ تصادقت مع السياب منذ تزاملت وإياه في الدراسة العليا، وكان في

ذلك الحين يبدي حماسة لقراءة قصائده عليَّ، لمعرفة رأيي فيها، وكذلك كان الأمر بالنسبة لي بالرغم من أنني لا أميل إلى مثل هذه الطريقة. حيث كنت أعتبر نفسي ناقد نفسي، وكنت أرى أنَّ القراءة تضفي على الشعر أحياناً محسنات ليست فيه، ويلعب الصوت دوراً في ذلك، في حين أن قراءة القصيدة بشكل صامت يتيح للمرء النفاذ إلى جوهرها، والوصول إلى مفاتيح أبوابها.

❖ وهل كنت تنتقد قصائد السيّاب، وكيف كان يتقبل ذلك؟..

❖❖ كنت أبدي بعض الملاحظات في شأنها، وكان يتقبل ذلك ويشكرني، وأحياناً كان يعاند، ويصر على أن كلمته أو جملته أفضل مما اقترحته عليه، لكنني كنتُ أكتشف أنه كان يأخذ باقتراحي حين ينشر القصيدة!..

أما عن سرّ الخصومة والجفاء بيننا، فيعود إلى تهجمه المستمر عليَّ وهو تهجم يعزوه البعض إلى صعود نجمي، وانحسار الاهتمام به، ولكن ربما أجد مبرراً للسياب، الذي يعدّ في نظري شاعراً كبيراً، حيث كان محبطاً معزولاً يعاني من المأساة الروحية والجسدية التي كان يعيش في أتونها، وربما قاده ذلك إلى الغيرة والنزق.

❖ ولكنَّ السيّاب لم يكن الوحيد الذي دخلت معه في السجال وفي الخصومة...!!..

❖❖ كانت السجالات تفرض عليَّ، وكنت أخوضها رغماً عني. فهل لك

أن تفسرّ لي كيف أن شاعراً بحجم نزار قباني أختلف معه في الرأي، وأنتقد شعره، يذهب فيشكوني للرئيس صدّام حسين، وهذه الحادثة جرت وأنا لا أزال مقيماً في بغداد، فهل كان يرغب قباني من هذه الوشاية غير الإضرار بي، وتعريضي للأذى؟!.

❖ **وهل كان بينك وبين القباني ما يجعله يقدم على هذه الخطوة؟!..**

❖❖ سؤالك يبدو كأنه يشكك في صحة كلامي.

❖ **أنا لا أشكّك بقدر ما أستبعد..**

❖❖ لا يا صديقي، هذه الواقعة حدثت، وأبلغني بها صديق يعمل في رئاسة القصر الجمهوري العراقي، وقد سمع شكوى قباني بأذنيه الاثنتين.

❖ **وماذا كان رد فعل الرئيس؟!**

❖❖ لستُ أدري، ولكن كيد قباني ارتدّ إلى نحره.

❖ **وماذا فعلت بالقباني غير النقد حتى يلجأ إلى شكواك للرئيس؟!**

❖❖ أنا ماذا فعلت ؟! أم هو ماذا فعل بي!!... ألا يكفي أنه طبع لي ديواناً في دار النشر التي يمتلكها من دون أن يعطيني فلساً من أتعابي؟!..

❖ **هاجمت محمد الفيتوري مراراً، ووصفت تأثير أدونيس في الحداثة العربية المعاصرة بـ«السطحي». فهل كنت مرغماً على ذلك أيضاً؟!..**

❖❖لن أتحدّث عن الأول الذي أشبّهه بـ«............!!!».. أما الثاني فهو مجدد على طريقة أبي تمام، حيث أن حداثته ليست لها جذور فلسفية أو

وجودية، وهي تنطلق من الكلمة إلى الكلمة، وتقفز من اللفظ إلى اللفظ، ولا تحدّق فيما وراء الكلمات والألفاظ. وليس في الجهد الذي يبذله أدونيس أية معاناة حقيقية، فالحداثة والتجديد ينبعان من المعاناة الروحية والمادية معاً، ويتحرران من شراك الشرط الإنساني، ومن براثن الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، والثورة عليه، والانطلاق من الزمان إلى اللازمان.

والذي يتأمل صديقنا أدونيس يرى أنه أبعد ما يكون عن كل هذا، فهو يجلس متأملاً وقارئاً، ويعيد إنتاج ما يقرأ، ومعاناة الذين كتبوا ما يقرأ، وهذه حقيقة، وليست نقداً له، ولهذا فإن تأثير أدونيس يكون سطحياً ولفظياً أكثر مما هو تأثير عميق وحقيقي.

❖ ولكن لأدونيس حضوره، وله جمهور واسع من القراء والنخبة والمهتمين...؟

❖❖ هذا الجمهور هم من الذين ينبهرون به أحياناً، وهم من المدلَّلين أو العابرين، أو الهامشيين الذين لم يعانوا محنة الوجود، والوقوف في وجه التعاسة والموت، ولم يناضلوا في سبيل حياة أفضل، فإما هم متواطئون أو مغفَّلون!!.

❖ وهل يثير حساسيتك أن يكون محمود درويش أو سواه الشاعر الأول؟..

❖❖ لا أؤيد مقولة الشاعر الأول، على رغم أن شعر درويش حيّ وإنساني، ولكن شعر أدونيس يبدو جيداً للقارئ الذي لا يعرف ما هو الشعر. وأنا لا

أؤمن بتقسيم الشعراء إلى طبقات كما كان يفعل القدماء، فكل شاعر مبدع حقيقي قمة شامخة، وشجرة باسقة في غابة الشعر.

❖ وأحمد عبد المعطي حجازي؟!..

❖❖ لا أريد أن أتكلم عن هذا الشاعر بالاسم، ولكنْ لكل شاعر شوط يقطعه، وهناك شعراء يقطعون شعرهم في سنواتهم الأولى، وهناك من يظلون يسبحون في بحر الشعر، وبعضهم يظل يبحر ويسافر في الأزمنة، وهذا ليس عيباً، فتاريخ الشعر حافل بنماذج كثيرة، وأنا يهمني ما أنتجه الشاعر حتى لو عاش سنة واحدة.

حاوره في عمان الصحفي موسى برهومة - مجلة التضامن - العدد (393) 1999/8/9م.

الحوار الثاني

❖ هل لك موقف من المرأة الشاعرة؟!.

❖❖ أنا أقدّس المرأة المبدعة مثل الشاعرة سافو الإغريقية فهي شاعرة عظيمة.

❖ وبالنسبة للشاعرة العربية؟!

❖❖ هناك مواهب متوسطة، ولكن لا توجد موهبة كبيرة مدهشة، وهذا ليس تجنياً على المرأة، بل هو واقع حقيقي، والنقد الأدبي يقرّ بذلك. أنا أعطي المرأة عذرها في ذلك؛ لأن واقعها الاجتماعي لا يسمح لها بالانطلاق بدءاً من الطفولة، فهي لا تعيش مثل الرجل الذي يتغذّى على الهواء والنور.

❖ والشاعرات في الغرب؟!

❖❖ التقيت بشاعرات من روسيا وإسبانيا وفرنسا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا، يمتلكن طاقات شعرية عظيمة جداً، لأنهن عشْنَ الحياة كما يعيشها الرجل الحر!.

❖ وما أهم كتاب أثّر في تكوينك؟!

❖❖ الجزء الأول من (الأيام) لطه حسين، أحداث هذا الكتاب محفورة في ذاكرتي، وأستطيع أن أرويها لك الآن، رغم أنني لم أستطع أن أكمل قراءة الأجزاء التالية.

❖ وعندما تكتب.. هل لديك طقوس معينة؟!

❖❖ أحسّ أن هناك زلزالاً قوياً قادماً في البداية أحاول أن أطرد هذا

الإحساس حتى لا أقع في الإلهام الزائف، ولكن أحياناً هذا الإحساس يظل يطاردني ويدق على الأبواب، فأضطر إلى الإصغاء.. ماذا يحدث؟! وأجد نفسي قد أمسكت بالقلم، وسطرت بعض الكلمات... والآن بعد إصابة عيني أكتب بقلم (تخطيط) بحروف سوداء كبيرة جداً، ولا أكتب كلمة كلمة، إنما أكتب في ذاكرتي مقطع قصيدة كاملاً، ثم أنقله على الورق بعناية شديدة جداً.

والغريب أنني عندما أبدأ بكتابة القصيدة، أرى أن برقاً قد أضاء ذاكرتي وأن ماهية القصيدة قد اكتشفتها بعيني قلبي، أي أن البرق قد أراني فريضة مرسومة. بحيث أتتبع مسار القصيدة، حتى وإن كنت مغمض العينين أو كنتُ أعمى، وعندما أنتهي من كتابة القصيدة أحاول التذكّر هل البرق الذي أضاء لي ماهية القصيدة يوازي أو يطابق القصيدة كما تحققت على الورق، فأحسّ أحياناً أخرى أن هناك كلمات قد قفزت إلى القصيدة. لا أدري من أين جاءت؟! فأحاول انتزاع هذه الكلمات والتأني في اختيار الكلمات التي تلائم بالضبط جسد القصيدة، وهذه تحتاج إلى عناية خاصة.

❖ وكيف تفرق بين الإلهام الزائف والحقيقي؟!

❖❖ أحسّ بالخطر قبل أن يقع ، في كل شيء، ليس في الكتابة فقط، بل في الحياة أيضاً، أشعر أن السماء ستمطر بعد ساعة أو ساعتين، أو أن صاعقة ستسقط!!

❖ هل هي صوفية؟

❖❖ لا ، ربما يرجع ذلك إلى البيئة ، بيئة الفقراء التي عشت فيها والمساجد والأولياء. العرقيات والطوائف المتآخية والمقتربة بعضها بالبعض الآخر ، كل ذلك جعلني أؤمن بوحدة الوجود ، بوحدة الإنسان... أنا أحاول أن أؤكد على جوهر الإنسان خارج غلاف الإيديولوجيات والطائفيات. ربما أختلف عن غيري ، فقد تشربت بثقافة كل الاتجاهات القومية والعرقية والدينية ، بالتراث الروحي لهذه الفسيفساء ، والتراث الروحي هو الأصل. تكتشف عند ذاك أنه لا توجد فوارق بين البشر ، بالرغم من اللغة والدين والمذاهب. لكن البشر الحقيقيين يتكلمون لغة واحدة ، وطموحاتهم واحدة ، يولدون ، يعيشون ويتعلّمون ويتعذّبون ، ويموتون ، وهذه هي رحلة الإنسان.

❖ وماذا تسمع في هذه الأيام؟

❖❖ أنا أستمع أحياناً إلى إذاعات: الهند ، وإيران ، وتركيا ، فأسمع أصواتاً جميلة ، بالرغم من أنني لا أفهم كلمات الأغنية. والمؤلم أن العرب الذي يصل تعدادهم إلى أكثر من 300 مليون نسمة ، لا يوجد بعد رحيل العمالقة: (عبد الحليم حافظ ، عبد الوهاب ، أم كلثوم ، فريد الأطرش) أصوات تشعرك بالانتشاء. وأعتقد أن الغناء ضرورة للإنسان مثل الشعر والموسيقا ، وبدونها تجف روحه.

❖ الموت ماذا يعني بالنسبة إليك؟!

❖ عمري الآن /73/ عاماً والإنسان في هذه السن قد يمرض مرضاً بسيطاً ويموت، أي أنني أشعر - وهذا ليس تشاؤماً - أن ساعة رمل حياتي قد أوشكت أن تنتهي، هذه الشعلة شعلة الحياة قد تسقط من يدي، وهذا طبيعي قدر على البشر كما جاء في ملحمة جلجامش: «إنَّ الآلهة استأثرت بالحياة والموت قدر على البشر...». أنا لا أخاف من الموت؛ لأنني أؤمن «أن الإنسان يموت من الحياة ولا يموت من الموت».. هذه مقولة إغريقية استخدمها كثير من الشعراء في كتاباتهم وبشكل خاص أوكتافيوباث، إذْ قام في (حفريات شعرية) بالسير خلف هذه المقولة التي هي أقرب إلى الصحة؛ لأن الموت ليس عدواً خارجياً للإنسان، الإنسان مثل ثمرة عندما تنضج تكون قد انتهت حياتها، فإما تتعفن أو تؤكل، الإنسان كذلك إذْ يأكله الدود.

كان الليل قد تقدم... وكان البياتي قد بلغ به التعب مداه... وبدأ السعال يزداد... كان يدخّن بشراهة... قلت: نستكمل الحوار فيما بعد.. أصرّ أن أبقى؛ لأنه سيظل مستيقظاً حتى الصباح... كنت أشعر أنه يريد مَنْ يكلمه في وحدته القاسية.. انصرفت وكنت أشعر أنها ستكون المرة الأخيرة التي سنلتقي فيها.

حاوره محمد شعير

الحوار الثالث

❖ كتب الدارسون والنقاد الكثير عن تجربتك الشعرية... فـي رأيك.. ما هي أهم هذه الكتب والدراسات؟!

❖❖ حقـاً كتـب الكـثير ولكـني أودّ أن أتحـدث عـن أول كتـاب عـن شـعري، صـدر فـي العـام 1955، للـدكتور إحسـان عبـاس تحـت عنـوان: «عبد الوهاب البياتي والشعر العربي العراقي الحديث». ونال هذا الكتـاب اهتمامـاً كـبيراً مـن الأوسـاط الأدبيـة جميعـاً، واعتـبر مصـدراً مهمـاً مـن مصـادر دراسـة الشـعر العربـي الحـديث. بـل يمكـن القـول: إنـه أول كتـاب يؤلف عن الشعر العربي الحديث، ورغم اتفاقي واختلافي مع المؤلف فـي أشياء كثيرة، فأنا أرى أنَّ هذه الدراسـة كانـت دراسـة رصينة ظلَّ النقـاد والدارسـون يتـذكّرونها حتـى الآن. ومـا لا أتفـق مـع المؤلـف فيـه، هـو أن مرجعية دراسته كانت مرجعية غربيـة بحتـة، وهـذا وهـم يقـع فيـه الكـثير مـن الدارسـين للشـعر العربـي، حتـى إن بعضـهم أسـرف فـي هـذه الاتجـاه، وبخاصة في السنوات الأخيرة.

❖ عدت أخيراً إلى كتابة القصيدة العمودية، بعد أن عقدت صداقة طويلة مع قصيدة التفعيلة... لماذا؟!..

❖❖ ليست عودة، بل هي خطوة إلى الأمام، فإيقاع الشعر العربـي يظـل هـو نقطة الضوء في حياة الشاعر، وهو أشبه بالكعبة التي يحـج إليهـا، وهـو يرحل فـي الكلمات والسموات، فمـن دون الإيقـاع والمقـدرة عليـه لا تكـون

هناك قوانين للشعر. ومن خلال تجربتي الشعرية الطويلة المدى تعلّمت أن الأشكال الأدبية لا قيمة لها من دون (الشعرية). والشاعر الحقيقي يستطيع أن يعبر عن نفسه من خلال الأشكال جميعاً: (الشعر العمودي، شعر التفعيلة، والنثر)، وأن يكتب شعراً يخلب الألباب، فالقصائد الثلاث أو الأربع التي كتبتها والتزمت فيها العمود، أثارت اهتماماً وإعجاباً لدى الأجيال جميعاً، ومنهم الأجيال الجديدة، إذ إنني أكتب قصيدة التفعيلة أو العمودية بشروطي أنا وليس بشروطهما، وإنني قادر على التعبير بالأشكال الأدبية جميعاً، وبالقوة نفسها، واللغة، والإيقاع، والصور، والرؤيا، ولا يمكن مثلاً أن تسأل بيكاسو في أخريات حياته الفنية إذا ما رسم لوحة بالشكل الكلاسيكي: لماذا رسمت بهذا الشكل؟ لأنه سيجيب أنه كان يقصد بذلك أو أن تجربته هي التي اختارت هذا الشكل.

النقاش البيزنطي حول الأشكال، قد يؤدي أحياناً إلى عقم بعض الشعراء؛ لأنهم لا يستطيعون أن يثيروا القضايا الحيوية، والمطلوب من الشاعر في النهاية أن يكتب قصيدة عظيمة، لا أن يُسأل لماذا كتبها بهذا الشكل أو ذاك.

وقد انتبه إلى ذلك ذات يوم الشاعر اللبناني سعيد عقل، وقال عن شعري الذي أعجبه جداً، أنني عندما أكتب الشعر العمودي قد أتفوق على معظم الشعراء المعاصرين. وهو رأي شاعر له تجربة ثلاثة أرباع القرن في

كتابة الشعر، وكذلك الأمر بالنسبة إلى كثير من النقاد الذين يستقبلون شعري بالروح نفسها، سواء أكان بالتفعيلة أو العمود أو النثر، فالشاعر يقوم أحياناً بدور ملك الغابة والحطّاب، وهذا هو قدر الشاعر، وأنا لا أرضى لنفسي أن أكتب إنشاء سقيماً كما يفعل الجميع، إذ أصبح الشعر على يد بعض الشعراء زخارف وألاعيب وهذيان إنشائي مسطح، إن الغوص في أعماق التجربة يتطلب خبرة من أجل استخدام جميع الإمكانات التي يستطيع بها الشاعر أن يكتب قصيدته. إذن فالسبب الفني وليس سواه هو الدافع إلى كتابة الشعر بهذا الشكل أو ذاك.

❖ كيف يرى الشاعر الكبير عبد الوهاب البيّاتي العالم من خلال المنفى؟

❖❖ إذا كنت أنا في منفى، فجميع البشر في منفى، سواء أكانوا في أوطانهم أم في منافٍ بعيدة، ففي نهاية القرن العشرين المسكون بالخراب المادي والروحي، سقطت مقولات ومفاهيم كثيرة، وأصبح أحياناً الوطن هو المنفى الصغير أو الكبير، يترصدنا الموت والتعاسة، أما الذين يعتقدون أنهم في أوطانهم فهم هؤلاء الذين يحتلون هذه الأوطان، وليس سكّانها الأصليون.

❖ ألا تشعر بالحنين إلى العراق... وطنك؟!..

❖❖ الحنين كلمة رومانسية بهت لونها، ولم يعد لها رنين الأربعينيات

والخمسينيات، عندما كان الإنسان يحن إلى رغيف خبز أكله، أو إلى صديقة زارها، فالتعاسة والموت لم يتركا وقتاً للإنسان لكي يحن إلى شيء. هناك الموت الوجودي بمعناه الكبير والصغير، ومن ثم فإن الحنين هو عودة إلى الولادة المستحيلة، أو عودة إلى النموذج البدئي الذي لا يقدر عليه إلاَّ البشر البدائيون، وهل بقي في العالم أناس بدائيون؟!!.

❖ وماذا عن دمشق.... والقاهرة؟

❖❖ دمشق مدينة أحبها أكثر من سواها.. أما القاهرة فقد اختطفت قلبي، ففيها قضيت سنوات جميلة، كان البشر فيها يحلمون بولادة جديدة، وكانت الحركة الثقافية خصبة تتميز بالإبداع والعطاء، وفي تلك السنوات كتبت (سفر الفقر والثورة) و (الذي يأتي ولا يأتي) و(الموت في الحياة) و(الكتابة على الطين) و(قصائد حب على بوابات العالم السبع) وكتاب (تجربتي الشعرية) الذي يمثل منعطفاً خطيراً في تطور تجربتي... كما كان لي فيها – ولا يزال – أصدقاء من الأجيال كافة، ومن الاتجاهات الثقافية والأدبية جميعاً، وكنت أشعر فيها أنني حر طليق، ولا أحس بأنني لا أزال في داخل السجن أو القبر الذي ولدت فيه.

❖ كثر الحديث في الفترة الأخيرة عن أزمة الشعر.. هل تعتقد حقاً أن الشعر في خطر؟

❖❖ إنني مؤمن بالولادات، طالما الحياة مستمرة وباقية فمن ينظر إلى نهر النيل أو دجلة، وقد كانا يجريان قبل المصريين القدماء، وقبل العراقيين،

كان يعتقد أن ماء هذين النهرين سينضب، ولكنهما لا يزالان يجريان ويصبان في بحار بعيدة، كذلك الأمر بالنسبة إلى الشعر، فالشعر نعمة نادرة، ولكن بركات هذه النعمة تحلّ دائماً وتأتي في كل الأوقات، وفي كل الأزمنة، وفي كل العصور، الذين يتشاءمون ويعتقدون أن الشعر في خطر أو في أزمة هم واهمون؛ لأن الشعر بالنسبة إلى الإنسان كالماء والطعام والهواء، ومن دون الشعر يموت الإنسان، ولا أعني بالشعر هنا ما يكتب فحسب، بل رؤيا الإنسان للكون، فهناك أناس لهم رؤيا ومعاناة قد يتفوقون بها على بعض الشعراء، ولكنهم لا يمتلكون الأدوات للتعبير، عندما ننظر إلى قراءة الشعر نحسّ أن هؤلاء القراء شعراء أيضاً.. وهناك ولادات مستمرة في الأقطار العربية جميعاً، ولكن هذه الولادات قليلة، وهو أمر طبيعي؛ لأن امتلاك أداة التعبير يتطلب تدريباً طويلاً ومعرفة بهذه الأدوات التي لا تولد مع الشاعر، بل على الشاعر أن يتعلّمها وأن يتعلّم كيف يكتسب المهارة وكيف يلعب بها أيضاً.

❖ **فيم تتجلى شعرية الشاعر؟**

❖❖ تتجلّى في بيت واحد من الشعر، أو في قصيدة، أو في ديوان، وما علينا إلاَّ أن نكتشف هذه الشعرية.

❖ **وكيف تنظر إلى قصيدة النثر؟**

❖❖ أرفض هذه التسميات وأؤمن بالإبداع، وقد قرأت طوال حياتي الكثير من الكتب النثرية التي أعجبتني، ربما أكثر من الشعر، وعلى

سبيل المثال، كتابات ألبير كامو، وكتابات أنطوان أكسوباري، والكاتب الروسي تشيخوف، وعشرات غيرهم... وهذه الكتابات أثرت في تأثيراً عميقاً. أو أحببتها كما أحببت الشعر الجيد. إذن لماذا نستخدم المتناقضات ونقول قصيدة، والقصيدة كلمة كلاسيكية تطلق على أبيات شعرية ذات مواصفات خاصة، ثم نقول نثراً، أنا أسمح لنفسي أن أسمي ما يكتب (نصوصاً)، وبعض هذه النصوص جميل جمال الشعر الموزون.

لا يوجد في تاريخ الشعر العربي شيء يسمى (قصيدة النثر)، وإلاَّ فيمكن اعتبار (الفتوحات المكية) لابن عربي شعراً رغم أنها نثر. ابن عربي كما هو معروف كتب شعراً ونثراً.

أنا لا أحبّذ استخدام الصيغ والتعابير الأجنبية المترجمة، والشعر مهما تطوّر يخضع لقوانينه، وقد تكون قوانين خاصة لا يمكن تجاوزها، وإلاَّ إننا نستطيع أن نسمي من يكتب أي كتابة شاعراً.

ولقد ساعدت على نشر الكثير من الكتب النثرية التي اعتبرها أصحابها شعراً، ولكنها كانت جميلة جداً، وقد أُعجبت بها كما أُعجب بشعر التفعيلة ، أو الشعر العمودي العظيم، فأنا لا أختلف مع الذين يكتبون نثراً لا يقلّ جمالاً أو روعة عن الشعر، ولكني أختلف معهم في التسمية المجهولة والغريبة على لغتنا.

حاورته منى عبد العظيم - القاهرة

❖❖❖

عبد الوهاب البيّاتي في نثره..

دمشق

كانت دمشق أول عاصمة عربية أزورها، وكان ذلك في بداية الخمسينيات أيام حكم الشيشكلي، ولكني لم أتعرّف على الحياة الداخلية لدمشق في تلك الزيارة، إذْ كنتُ مشغولاً مع أسرتي. وكان القوس الذي أتحرك به يبدأ بالفندق وسوق الحميدية وبعض الشوارع القريبة. ولكنني لم أترك الفرصة تفلت من يدي، إذْ كنتُ أشتري يومياً العشرات من الكتب التي لم يسبق لي أن قرأتها، والتي كانت ممنوعة في العراق، وعدت إلى بغداد بعد أيام فوجدت صعوبة في إدخال الكتب، ولكن صديقاً كان معنا في السيارة ادّعى أن الكتب تعود له، فسمح له بإدخالها، وقد ظهر لي فيما بعد أنَّه شخصية معروفة.

أما الزيارة الثانية فقد تمت عشية حلف بغداد 1955، وكان معي الأستاذ ذو النون أيوب الكاتب العراقي المعروف وعضو البرلمان آنذاك الذي حلّه نوري السعيد بعد أيام قليلة من تشكيله؛ لأنه لم يطق أن يرى أربعة من الوطنيين أعضاء فيه.

وقد عبرنا الحدود العراقية بسيارة خاصة، دون المرور بنقطة التفتيش بمساعدة بعض الأصدقاء الذين يعرفون المنطقة، وكان سبب الزيارة حضور مؤتمر الأحزاب اليسارية لبلدان الشرق الأوسط ومعظمها ممنوعة

في بلدانها. وقد غضت السلطات السورية النظر عن نشاط هذا الاجتماع؛ لأنه كان يخدم مصالحها الاستراتيجية.

وفي تلك الزيارة تعرفت على أبرز الأدباء السوريين المخضرمين منهم والأجيال الجديدة التي كانت في بداية حياتها الأدبية. وأذكر من الأجيال الجديدة: صدقي اسماعيل، وجلال فاروق الشريف، وحنا مينه، وشوقي بغدادي، وسعيد حورانية، وآخرين.

كنا نلتقي يومياً في (مقهى الهافانا) الذي كان يؤمه معظم الأدباء السوريين. وكان اسمي الأدبي قد سبقني، ولهذا فإنني كنتُ محوراً لكثير من المناقشات الأدبية والثقافية، وكانت سورية تمرّ في عصرها الذهبي كما وصفها الكثير من الكتّاب الأوروبيين الذين زاروها في تلك السنوات.. وأذكر أن ديوان (أباريق مهشّمة) كان جواز سفري إلى قلوب هؤلاء الأصدقاء.

وعندما كنتُ أجد نفسي وحدي، أذهب باتجاهات مختلفة لاكتشاف دمشق العريقة، التي يعود تاريخها إلى ما قبل الإغريق والرومان. وكانت من أهم المحطات التي أبدأ فيها مسيرتي هو الجامع الأموي، ثم أذهب باحثاً عن بردى الذي تغنّى به معظم شعراء سورية. وعندما قيل لي: إن هذا هو بردى لم أندهش لكونه ساقية، فلقد حاولت أن أذهب إلى منبعه، وقد خلبني جماله في منبعه حيث كانت الأشجار الكثيفة، تغطي ضفتيه، وكنت أحياناً أجلس وحدي أتأمل مياهه الشحيحة، وأرى من

خلال هذا أشياء كثيرة كنت أراها في أحلامي.

وذات يوم دعاني صديق للذهاب إلى ضريح الشيخ محيي الدين بن عربي في الصالحية. وهناك وقع ما لم أتخيله إذ رأيت (عائشة) التي كتبت عنها فيما بعد في أشعاري تتشح بالسواد وتغطي وجهها ولا يظهر منها سوى عينيها. وقفت أمامها مبهوراً وأخذ قلبي يدق، فانتبه والدها الذي كان يقرأ دعاءً بلغة فارسية. وقال لي بلغة عربية فصيحة: إنها مثل أختك!! فشعرت بالخجل وخرجت باكياً وأطلقت ساقي للريح خوفاً من أن أراهم ثانية. وقد ظهر تأثير هذه الصبية في قصيدتي التي كتبتها بعد سنوات بعنوان: «عين الشمس أو تحوّلات محيي الدين بن عربي في ترجمان الأشواق»، والغريب أنني عندما قرأت مقدمة ابن عربي لديوانه اكتشفت أنه يتحدث عنها معبراً عن شعوري، وأنا أرمق هذه الصبية.

كثرت بعد ذلك زياراتي إلى دمشق، وبخاصة بعد العام 1964، وهو العام الذي عدت فيه من موسكو لأستقر في القاهرة.

كنت أذهب من القاهرة إلى دمشق كل شهرين وأزور كل المناطق التي سبق لي أن زرتها، وقد صدرت لي بعض الكتب في تلك السنوات فيها إشارات كثيرة إلى مدينة دمشق، وبخاصة المدينة نفسها، والخابور، وحلب، وحوران، أي المناطق التي كانت تختمر فيها الكثير من الثقافات قبل ظهور الإسلام.

وهذا ما قادني إلى زيارة مدينة (بصرى) التي خلبني معمارها ومسرحها،

الذي يستطيع أن يقف المتكلم في المدرج ويتكلم ويسمعه آخر مستمع يجلس في الصف العلوي الذي يبعد أكثر من مئة متر. ،هذا تصميم معمول به في جميع مسارح المدن الدارسة الإغريقية والرومانية بشكل خاص.

في كل زيارة.. كان بعض الوجوه يختفي والبعض الآخر يظهر، وهكذا فقد مررت على دمشق وبقيت وحدي أدور في رحاب هذه المدينة الأولى التي زرتها وأحببتها، وفي آخر زيارة لي قبل فترة وجيزة أحسست إحساساً جديداً، إذْ شعرت وكأني أزور المدينة لمرة الأولى، فحاولتُ اكتشافها من جديد ووجدتُ أن إحساسي الجديد ووعيّ بكثير من حقائق هذه المدينة قد نما وتطوّر، حتى إنني أحسست أن المدينة أصبحت جزءاً من تجربتي الشعرية.

وتمتاز هذه المدينة الخالدة حسب إحساسي، بأنها تضمُّ مجتمعاً متحضراً يذوب فيه جميع الوافدين من الأرياف والقرى البعيدة، ويصبحون نواة لتحول جديد في حياة المدينة.



بغداد

في طفولتي كانت علاقتي بالقرية أكثر من علاقتي بالمدينة؛ لأنني كنت أذهب مع والدي في العطل الصيفية إلى الريف، حيث السماء الزرقاء وحقول القمح المترامية الأطراف والطيور بأشكالها كافة، فكنت أتوحد مع الطبيعة ومخلوقاتها التي قلما كنت أراها في المدينة. وعندما قلّ ذهابي إلى القرية صيفاً بعد صيف؛ لأنَّ والدي كان قد شغل بأمور أخرى، ولم يجد وقتاً لزيارة أخوته وأعماقه، واجهت في تلك الآونة محنة اكتشاف المدينة واكتشاف أسرارها وممراتها السرية وضواحيها، والخيوط الخفية التي تربطها بالماضي.

كانت بغداد ولا تزال تحمل في وجهها عذرية الزمن وعطرة، ورائحة القباب والمآذن الشاخصة التي ينتمي بعضها إلى العصر العباسي، وخاصة العصر العباسي الأخير، كانت تستهويني فكنت أطوف حولها، كما كان يطوف نهر دجلة في مدينة بغداد، كنت أقرأ الشواهد المدوّنة على متونها وأكتشف في إحدى جولاتي أن البعض قد أزاح بعض المتون ومحاها بغية كتابة تواريخ أخرى مزوّرة وأسماء لا تنتمي إلى العصر الذي فيه هذه الآثار الباقية. وكانت مقبرة الإمام الغزالي التي تقع بالقرب من حلة باب الشيخ التي ولدت فيها في بغداد إحدى محطاتي وبخاصة قبيل الغروب، حيث كان يلتقي بين القبور أو على أطراف منها بعض الأعراب الذين جاؤوا المدينة ليبيعوا أغنامهم، وبعض الباعة الصغار الذين كانوا

يسرقون بعض ما يحمله هؤلاء الأعراب ويفرون به، كما كان البعض يبيع طيوراً بأقفاصها أو دون أقفاص وهي مربوطة بخيوط بالية.

أما المحطة الثانية في تجوالي فقد كانت بعيدة نسبياً، وهي مقبرة السهروردي، حيث تقع بجوارها مقابر اليهود، وكان القدم يظهر على هذه المقبرة من رائحة التربة والحجارة وبعض الأشجار الهزيلة التي كان يحتطبها الفقراء.

كنت أقف قبالة مسجد المقبرة الذي كان شبه مهجور، وأحاول استقراء ما جرى له دون جدوى. وكنت أحياناً أسأل بعض سكّان القبور الذين لا يعرفون شيئاً. وعندما كنتُ أعود إلى البيت كنت ألوذ بجدي لكي يشرح لي بعض غوامض ما رأيتُ وما شاهدت، وأحياناً وأنا أعرج على هاتين المحطتين، أذهب إلى نهر دجلة من الباب الشرقي لبغداد، وبخاصة أيام الفيضان حيث كان النهر محصناً بأكياس الرمل خوفاً من غرق المدينة، وما أكثر ما كان الماء يعلو ويطفو فوق الأكياس وينساب إلى الشوارع، وكانت الشرطة عندما يبلغ النهر هذا المستوى، تلقي القبض على كل من يمرّ بالشارع لأخذه للسخرة، وكان مشهداً مؤلماً، حيث كان البعض يشكو من أنه ذاهب لشراء دواء لوالده المريض... ،لكن الشرطة كانت تقسو، ولا تسمع هذه الاحتجاجات.

كنتُ أرى الكثير من الأجانب الذين يزورون قناصل الدول الأجنبية، يطوفون ليراقبوا الفيضان، وكان بعضهم يقهقه ويضحك على منظر

الذين تختطفهم الشرطة، لتأخذهم إلى الأماكن التي تخترق فيها مياه النهر ضفافه، وكم كنتُ أتمنى لو كنتُ أملك القوة لأمنع هؤلاء الذين كانوا يسخرون من المدينة وبؤسها وتعرضها للخطر.



القاهرة

بدأت علاقتي بالقاهرة قبل أن أراها ، فقد كنتُ معجباً بمجلة (الغد) وبمنشورات دار الفكر التي كانت تصدر المجلة ، وقد أشار عليَّ أحد الأصدقاء المقربين في بغداد أن أرسل ديواناً جديداً لينشر في هذه الدار. وقمت بإرساله فعلاً بالبريد المضمون. وكنت أخشى أن يُصادر من قبل رقابة البريد في العراق، ولكن الكتاب أفلت من الحصار ووصل إلى القاهرة، وأثناء وجود الكتاب في المطبعة ، وقع العدوان الثلاثي على مصر. وبعد توقف العدوان وانسحاب القوات المعتدية صدر الديوان مباشرة، وقام بتصميم غلافه ورسومه الداخلية الفنان الراحل فؤاد حسن الذي كان أحد أركان هذه الدار.

والغريب أن الرقابة المصرية حذفت جملاً وكلمات كثيرة من الديوان، مع العلم أن الديوان كان ضد الغزاة والمعتدين وتغنياً بنهضة العرب. وفاتني أن أذكر أن الديوان هو (المجد للأطفال والزيتون)، وشعرت بغصة وأنا أتصفح النسخة التي أرسلت لي، وشعرت أنني لا أستطيع تفحصها فأخفيتها في أحد رفوف مكتبتي.

وبعد سنتين أو ثلاث أعدت طبع الديوان من جديد في بيروت، معيداً إليه المحذوفات، وعاد لي إحساس بالراحة حتى إنّي أتلفت نسخة الطبعة الأولى التي كانت في مكتبتي.

وكانت أول زيارة لي إلى القاهرة، هي حضور مؤتمر التضامن الآسيوي الإفريقي، ضمن وفد العراق الذي يضم أعضاءه من الجبهة الوطنية. وكنت أصغر أعضاء هذا الوفد والمستقل الوحيد من بينهم. ومن طريف ما حصل لي أثناء هذا المؤتمر أن أحد الشعراء الروس الذي كان حاضراً سألني عندما قُدِّمت إليه: كيف حال والدك البياتي!!.. ظناً منه أنني ابن البياتي وليس البياتي الشاعر، وكانت نكتة طريفة تداولها أعضاء المؤتمر من مختلف البلدان، حتى إنَّ أدباء الهند والصين طلبوا مني أن أوقع لهم في أوراق وكتبوا مناسبة هذا بلغتهم.

بعد عودتي من القاهرة إلى دمشق حيث كنتُ أقيم، أحسست أن القاهرة قد خلبت لبي، وأنها ستكون محطتي التالية فيما بعد؛ لأنها تمثل القلب النابض لمنطقة شاسعة فيها الوطن العربي، تلتقي فيها مختلف التيارات والآراء وتنصهر في بوتقة واحدة.

وبعد ذلك عدتُ لزيارة القاهرة من جديد للإقامة فيها. وقد شجعني على السفر الشاعر والكاتب عبدالرحمن الخميس الذي استضافني في بيته عدة أسابيع، وعندما استأجرت شقة تكفل بدفع قيمة الأثاث الذي اشتريته، وكانت (دار الديمقراطية الجديدة) التي يشرف عليها الأستاذ محمود أمين العالم، قد نشرت لي ديوان (أشعار في المنفى) بحلّة أنيقة، وأشرف على تصميم غلافه الفنان الكبير عبد الغني أبو العينين.

وكان القدر يخبِّئ لي مفاجأة تجعلني أشعر بالسعادة، وكان ذلك عندما

كنتُ أقيم في موسكو، إذْ اتصل بي سفير مصر في موسكو في تلك الآونة، وأخبرني أن الرئيس عبد الناصر قد وجّه لي دعوة لزيارة مصر أو الإقامة فيها كما شئت.

فسافرت بعد أيام قليلة من الدعوة، وأذكر أن الطائرة التي سافرت فيها كانت تقلّ أيضاً رئيس الخبراء الروس لبناء السد العالي. وأقمتُ في القاهرة منذ ذلك العام حتى موت الرئيس عبد الناصر 1970، وقبيل (كامب ديفيد) قررت العودة إلى بغداد.

في تلك السنوات أي منذ عام 1964، اتسعت علاقتي بالمثقفين المصريين، وكنتُ أحافظ على الودّ بيني وبين من كنتُ أصادقهم، دون أن أثير أية حوارات سياسية تثير الخلاف والاختلاف. ولهذا فإن الجميع قد أحبوني وفتحوا لي قلوبهم وبود.



عبد الوهاب البيّاتي
شهادات أدبية ونقدية

توديع البيّاتي

جابر عصفور

لم يكن البياتي (المولود سنة 1926م) واحداً من رواد حركة الشعر الحر الذين ثاروا على القصيدة العمودية، وتحرروا منها في إبداعهم الذي أخذ يفرض حضوره في أعقاب الحرب العالمية الثانية، بوصفه تمرداً على قيود الضرورة السياسية والاجتماعية والفكرية والإبداعية، وإنما كان واحداً من أبرز هؤلاء الرواد على مستويات الإنجاز الشعري الذي وضعه موضع الصدارة من الحركة الجديدة، جنباً إلى جنب نازك الملائكة ونزار قباني اللذين ولدا قبله بثلاث سنوات (سنة 1923)، وجنباً إلى جنب بدر شاكر السياب وبلند الحيدري وجبرا إبراهيم جبرا الذين ولدوا معه في العام نفسه، سنة 1926، فكان وإياهم طلية الجيل المولود في عشرينيات هذا القرن، الجيل الذي ضم - إلى جانب من ذكرت - كمال نشأت (1923)، وتوفيق صائغ (1924)، وخليل حاوي (1925) من الذين ولدوا في العقد الذي مهدّت له ولادة فدوى طوقان ويوسف الخال سنة (1917)، وانتهى بولادة أدونيس والفيتوري وتاج السر حسن سنة 1930، وصلاح عبد الصبور وجيلي عبد الرحمن سنة 1931.

وقد تميز البياتي عن أغلب هؤلاء بانحيازه الماركسي الذي لم يتخلَّ عنه إلى نهاية حياته، والذي جعل منه شاعر الطليعة اليسارية (الماركسية) على امتداد الوطن العربي.

وقد أفضت هذه الممارسة الشعرية إلى الصدام مع الواقع السياسي - الاجتماعي المعادي، الواقع الذي لم يقصِّر البياتي في تعريته والهجوم عليه وتوجيه أقسى ألوان الهجاء السياسي إلى نماذجه وأنماطه ورموزه، فكانت النتيجة المطاردة التي طوّحت به من منفى إلى منفى، ابتداء من منتصف الخمسينيات، وذلك في تتابع المنافي الذي ضمَّ إلى دمشق وبيروت القاهرة التي عاش فيها تحت كنف عبدالناصر، محرراً في جريدة «الجمهورية».

وهو التتابع نفسه الذي ضم إلى الاتحاد السوفياتي ألمانيا الشرقية وغيرها من بلدان الكتلة الاشتراكية التي ظلَّ البياتي يتنقل ما بينها وأقطار المنافي العربية، لا يكاد يعود إلى العراق حتى يضطر إلى الخروج منه، فلم يفارق حياة المنفى التي ارتحلت به، في الخمس عشرة سنة الأخيرة، من مدريد إلى عمان، ومن عمان إلى دمشق التي أوصى أن يدفن فيها بالقرب من قبر محيي الدين بن عربي الشاعر الصوفي الكبير. هذا التتابع جعل من كتابة المنفى السياسي عنصراً تكوينياً أساسياً في عالم البياتي الشعري، وذلك على نحو لا نجد له مثيلاً عند أقران البياتي أو أبناء جيله.

ولا يتوقف الأمر في هذا المجال على عناوين دواوين من مثل «أشعار في

المنفى» (سنة 1957) وإنما يمتد ليشمل عشرات القصائد التي تتابعت ابتداءً من ديوانه الثاني «أباريق مهشمة» سنة 1954، وظلت تتتابع في تجليات متباينة، تجسّدت معها محطات التغير في تقنيات الممارسات الإبداعية، ودرجات العمق التي أفضى إليها تراكم الخبرة واتساع دائرة المثاقفة.

وأتصور أن تعدد المنافي أكسب البياتي أفقاً مفتوحاً من الحوار مع إبداعات العالم الذي ارتبط بتياراته الثورية في الفن والفكر، وكان من نتيجة ذلك أن أفسحت قصائده مكانة دالة لشعراء وكتاب من طراز مكسيم جوركي وفلاديمير ماياكوفسكي ولويس أراجون، وناظم حكمت، في السياق نفسه الذي حمل أسماء مبدعين من أمثال ت.إس.إليوت وأرنست همنجواي وألبير كامو وبابلو بيكاسو، فضلاً عن رفائيل ألبرتي وأنطونيو ماشادو.

أضف إلى ذلك أسماء بيلا أخمدولينا وأندريه فوزنيسكي وعزت سرابليتش وجريجوري كورسو كورسو وباسنا شاميج الذي عرف بهم واختار من أشعارهم في كتابه «صوت السنوات الضوئية» متابعاً ما سبق أن قام به حين قدّم أشعار صديقه ناظم حكمت، وقد ارتبط ذلك بتجواله الشعري الذي جمع ما بين كتّاب الشرق والغرب إلى أسماء المبدعين العرب الذين اتصل بهم أو اتصلوا به في تقلب منافيه.

وأحسب أن هذا الأفق الممتد من العلاقات كان سبباً من أسباب تعميق

إدراكه بوحدة الإبداع الإنساني قديماً وحديثاً، في الشرق أو في الغرب، ومن ثم إيمانه بعلاقات التبادل التي تجاوبت معها أقنعة الحلاج والمعري والخيام وديك الجن وطرفة بن العبد والمتنبي وجيفارا وهملت وبيكاسو وهمنجواي، وغيرها من الأقنعة التي اختارها كي يقدم بواسطتها ما أطلق عليه «البطل النموذجي» في عصرنا وفي كل العصور، في موقفه النهائي. والهدف استبطان تجليات أو تحولات هذه الشخصيات النموذجية في أعمق حالات وجودها، والتعبير عن المحنة الاجتماعية والكونية التي واجهتها، خصوصاً في سعيها إلى مجاوزة ما هو كائن إلى ما يمكن أن يكون.

والواقع أن كتابة المنفى هو الوجه الآخر من الكتابة السياسية في الممارسة الشعرية التي تميز البياتي عن أقرانه، سواء من منظور الالتزام السياسي الذي أنتج قصيدة لم تخل من خطابة الملتزم الحزبي، أو منظور البلاغة السياسية التي فتحت الشعر على شعارات الانتماء الاعتقادي ورموزه التي اكتسبت عمقاً بتواصل الممارسة السياسية.

وأخيراً، من منظور الهجاء السياسي الذي لم يفارق شعر البياتي إلى أن هجره في السنوات الأخيرة، خصوصاً بعد أن تخلّى عن الرؤية الحدية التي لا تعرف سوى المطلقات.

وقد أعلن البياتي عن تغيره الأخير في الندوة التي أدرتها في معرض الكتاب في القاهرة في الثالث من شباط (فبراير) الماضي. واشترك فيها

إلى جانب أدونيس وأحمد عبد المعطي حجازي، وسميح القاسم وتوفيق بكار ويمنى العيد. وقد لاحظت نبرة التسامح التي أخذت تغزو خطابه، كما لاحظت أنه ظلَّ يلح على حق الاختلاف وقبول المغادرة، مؤكداً حتمية التغير، معلناً أنَّه هو نفسه قد تغير، وصار أكثر إلحاحاً على ضرورة الحوار لا الشجار بين المثقفين. كما صار أكثر ابتعاداً عن الحدية القديمة التي لا تعرف سوى الثنائيات الضدية المتعادية، وأكثر انغماساً في اتساع مدى الرؤيا التي تضيق بها العبارة. وكنت أرقب ملامحه، وهو يلقي كلماته الهادئة، في تؤدة الشيخ الذي أكسبته تقلبات الأزمنة العربية حكمة إدراك النهايات، وأقارن في نفسي بين ما كان عليه البياتي شاعر الواقعية الاشتراكية الذي شدّتنا إليه البلاغة السياسية التي هيمنت على عقولنا إلى كارثة العام السابع والستين، والبياتي الشاعر الإنساني الذي انتقل من بلاغة اليقين والمطلقات التي سقطت مع العام السابع والستين إلى بلاغة قلق البحث الذي لا يعرف اليقين النهائي، ولا المطلقات التي لم يعد لها حضور في عالم الذي يأتي ولا يأتي من شاطئ الموت الذي يبدأ حيث تبدأ الحياة.

اختفى الشاعر العقائدي الذي استبدل بالرؤية الرومانتيكية الرؤية الواقعية الاشتراكية، محافظاً على العنصر الإطلاقي الذي لم ير في العالم سوى العلاقات الحدية التي تقابل بين النقائض أو تجاور بين الأشباه. وتعلمت الذات المركزية التي كتبت أشعار المنفى معنى النسبية

التي تخلفها إحباطات الممارسة، فتخلت عن يقينية الكتابة التي انتهت هيمنتها مع «سفر الفقر والثورة» (سنة 1965). وفتحت الباب المغلق كي يدخل البحث عن «الذي يأتي ولا يأتي» (سنة 1966)، علامة على المسألة المدفوعة بوطأة وعي «الموت في الحياة» (سنة 1968)، أو وطأة الكارثة الهولية للعام السابع والستين، تلك الكارثة التي دفعت العين الشاعرة إلى التحديث في «عيون الكلاب الميتة» (سنة 1969)، و«الكتابة على الطين» (سنة 1970).

ومن هوة المسافة التي اتسعت ما بين وعود الانتصار وواقع الهزيمة، وما بين سفر الفقر والثورة وسفر المنفى الذي أصبح أبدياً، تشبث البياتي بالرموز الأسطورية، مبحراً بها صوت مرفأ حداثي مغاير، ملحاً على أسطورة الولادة الجديدة التي سبقه إليها السياب وغيره من الشعراء الذين أطلق عليهم جبرا إبراهيم جبرا اسم الشعراء التموزيين، لكنه قام بتعديلها لتغدو أسطورة الثورة الأبدية التي لا تموت روحها الخالدة، وإن انكسرت في هذا القطر أو ذاك، والتي تتجدد كالنور في تحولها من مكان إلى آخر.

هكذا، تعلم البياتي الشاعر معنى أن تهاجر الثورة كالطيور، وكيف تعود مثل الجذور التي لا تموت إلاَّ لتبعث في باطن الأرض التي تسحقها المجاعة. وكانت أسطورة الولادة الجديدة للثورة ملازمة لأسطورة الثائر الأبدي الذي يتجلّى حضوره في كل مكان تتخلق فيه شروط الثورة، ومن

ثم تتعدد صوره في حركته المتجددة. كأنه المجلي الأزلي لسارق النار الذي يأتي مع الفصول، حاملاً وصية الأزمنة، ناقلاً ناره من عصر إلى عصر، ومن أرض إلى أرض، ستبصر أمواج التواريخ وأحزان سلالات الموتى، رافضاً كل الشعارات ومصلوباً على بوابة الرفض، صارخاً كالطفل في دوامة الخلق وإعصار الحريق. وقد تحوّلت صورة الشاعر، نتيجة هذا التغير، واكتسبت سمات ذلك الثائر الأبدي الذي يموت كي يولد من جديد، تحت شموس مدن أخرى، وفي أقنعة جديدة:

يبحث عن مملكة الإيقاع واللون وعن جوهرها الفاعل في القصيدة:

يعيش ثورات عصور البعث والإيمان، منتظراً، مقاتلاً،

مرتحلاً مع الفصول، عائداً لأمه الأرض مع المتوجين بعذاب النور

والرافضين ، وبناة مدن الإبداع

في قاع بحر اللون والإيقاع.

والواقع أنَّه منذ أن دخل نموذج الشاعر في قصائد البياتي إلى فضاء المابين، محترقاً كالعنقاء كي يضيء ليل البشر، ومضى مع الريح التي تسبق من يأتي ولا يأتي، تغيَّر شعر البياتي تغيُّراً لافتاً، وأخذ يتخلّى عن خطابيته التي كان عليه أن يخلعها قبل أن ينزل إلى جحيم نيسابور، مجلى آخر لأورفيوس الذي تتبع محبوبته إلى أعماق العالم السفلي، حيث لا بديل من الانتحار سوى البحث عن المعنى، أو البحث عن علامة الثورة التي هي عبور من خلال الموت، أو ولادة تطول في ضريح مخاض فجر

مرعب قبيح، كأنها ذلك «المستحيل» الذي «أتي مع الفجر أو لا يأتي»..
وفي ثنايا البحث عن المعنى، في تحولات العالم الذي التبست مطلقاته وتزاحمت أضداده، عثر البياتي على الشعر الذي أضاعته الخطابة السياسية، وأخذ يصوغ قصائده التي لن تتضاءل قيمتها الإبداعية مثلما تضاءلت قيمة خطابته السياسية. واستطاع أن يتقمص نموذج الشاعر العراف الذي يرتدي ثوب ساحر، مخفي وجهه تحت الأقنعة، ويعاني في حضور الكلمات وحشية النبذ بأرض النوم، والسحر، وآلام المخاض، محموماً، طريداً، تاجه الشوك، وصليبه حلم يبين ولا يبين. وعندئذٍ فقط سطع نجم البياتي الشاعر الذي حاول، جاهداً، التوفيق بين ما يموت وما لا يموت، بين المتناهي واللامتناهي، بين الغوص في الحاضر ومجاوزة الحاضر، بعبارة أخرى، تجسد الشاعر الذي لم يعد يجرؤ أن يقول: صوت لينين الأخضر العميق لا يزال/ يهدر في العالم/ والرايات في الجبال/ تسد درب الشمس/ والآلات والأنوال/ تنبض في قلوبكم/ يا إخوتي العمال.

وما أقصر المسافة بين نموذج الشاعر – سارق النار – في هذا التغير والشاعر – الرائي – العرَّاف – الباحث الأبدي عن وجه الحقيقة التي صارت التجسّد الجديد للثورة الأبدية التي لا تكف عن الولادة الجديدة. إنها المسافة التي أفضت إلى التصوف، لكن ليس على سبيل البحث عن أندلس الأعماق، أو الغوص في قرارة القرار من التحولات الداخلية للأنا،

وإنما على سبيل البحث عن أقنعة مجانسة لتخلّق سارق النار، أقنعة تتيح للشاعر أن يختفي وراء الأوجه المستعارة من الحلاج وعمر الخيام والسهروردي ومحيي الدين بن عربي، وفريد الدين العطار، وحافظ شيرازي وغيرهم من المتصوفة الذين نقل عنهم البياتي فعل الرؤيا الذي ارتبط بأسطورة الشاعر العرَّاف، ومداومة البحث عن الحقيقة التي ظلّت كامنة كالعلة الأولى، وراء تجليات الولادة الجديدة للثورة الأبدية.

وشيئاً فشيئاً اتخذ حضور هذه الحقيقة العديد من المسميات، ابتداءً من اسم عشتار وانتهاءً باسم لارا، مروراً بأسماء خزامي وهند وصفاء، لكن مع الإلحاح المتكرر على مسمى عائشة التي ضمّت كل الأسماء، واختفت وراء أكثر من صورة وتحولت إلى رمز متكرر، لا يكاد يفارقه شعر البياتي. وسواء وقع عليها في شعر أدونيس، أو اكتشف شعائر ميلادها وموتها في الطقوس والشعائر السحرية المنقوشة باللغة المسمارية على ألواح نينوى، فالمهم أنها تحوّلت إلى حضور مطلق لإبداع الحياة التي تتخلق في فعل الولادة الجديدة للثورة التي لا تفارق في ترابطاتها «بستان عائشة». وهو عنوان الديوان الذي صدر عن «دار الشروق» في القاهرة سنة 1989، مواصلاً الرحلة الطويلة التي بدأت من قصيدة «مرثية عائشة» في ديوان «الموت في الحياة» الذي كان «الوجه الآخر لتأملات الخيام في الوجود والعدم».

ولم تختف تجليات عائشة - منذ ذلك الوقت - في «الكتابة على الطين»

أو «عيون الكلاب الميتة». وتصاعد حضورها في «قصائد حب على بوابات العالم السبع» و«كتاب البحر» و«سيرة ذاتية لسارق النار» و«قمر شيراز» و«مملكة السنبلة» و«كتاب المراثي» و«البحر بعيداً أسمعه يتنهد» و«تحولات عائشة». وأخيراً، ديوان «نصوص شرقية» الذي صدر هذا العام، قبل وفاة البياتي بقليل، عن «دار المدى» في دمشق.

هكذا، أصبحت عائشة الرمز الذاتي والجماعي لحب الثورة الذي حلَّ في نسغ الوجود المتجدد، كأنها الفراشة التي تراوغ كالدخان والهواء، تاركة عشاقها يبحثون عنها في جحيم هذا العالم، وفي كل العصور، فهي روح العالم الذي يحيا من خلال الموت، ساعياً وراء الثورة التي لا معنى للحب دونها، أو الثورة التي هي الوجه الآخر للحب. ولماذا لا أقول: إن عائشة غدت حقيقة الثورة التي نضجت على نار القصائد، فتجوهرت في معبد الحب المقدس، رمزاً فريداً من رموز الشعر المعاصر؟!..



البياتي يواصل البحث عن عائشة

عبد الرحمن منيف

بغداد عام 1954.

فاضل الجمالي رئيس للوزراء.

الحياة تتغير: تطلق الحريات، تخرج الأحزاب من السرية إلى العلن، الصحافة تمارس دورها الطبيعي في أن تتحدث عن كل شيء، وتتناول أي شخص وأي موضوع، المطابع تدور بسرعة كبيرة لتخرج الكتب التي ظلّت فترة طويلة حبيسة الأدراج، وفي هذه الفترة بالذات يظهر ديوان «**أباريق مهشمة**» لعبد الوهاب البياتي.

صحيح أن عدة دواوين سبقت هذا الديوان، لكن «**أباريق مهشمة**» هو الذي كرّس عبد الوهّاب البيّاتي شاعراً كبيراً ومميزاً.

لا زلت أتذكر الديوان: غلاف رمادي، بورق يميل قليلاً إلى الصفرة، ولوحة تزين الغلاف.

وفي ذلك الوقت أيضاً يصدر ديوان بدر شاكر السياب، «المومس العمياء»، ويصبح الديوانان حديث بغداد، خاصة أوساطها المثقفة، ليس باعتبارهما ديوانين لشاعرين كبيرين فقط، بل لأنهما يمثلان لونين في الطيف السياسي، اللذين سيتصارعان ويقتتلان، وسوف يبقيان هكذا، وإن غاب الشعراء وغابت الرموز.

منذ ذلك الوقت وعبد الوهاب البياتي يصعد في سلم الشهرة، ويغيِّر الأماكن بحثاً عن عائشة.

بدأ من القاهرة، خاصة في فترة تألقها، أيام عبد الناصر، واستمر فيها زمناً تعرف في حواريها القديمة، إلى جانب سيدنا الحسين بحثاً عن عائشة.

كانت القاهرة، تلك الفترة، في عصرنا الذهبي، أممت القناة، وخاضت حرب السويس، وأصبحت عربية الوجه واللسان بالكامل، وكان من نتائج تلك السياسة أن عجّلت بقيام ثورة تموز في بغداد، ليعود عبد الوهاب إلى مدينته الأولى دون أن يعثر على عائشة الحلم.

لم يطل الفرح في بغداد، إذ ما انقضت شهور حتى دب الخصام واختلف الثوار، ولئلا يكون البيّاتي طرفاً في هذا الخصام آثر الذهاب بعيداً، وهكذا سمي ملحقاً ثقافياً في سفارة العراق بموسكو.

بين الثلوج والليالي البيضاء استمر البياتي في بحثه عن عائشة: ذهب من موسكو إلى آسيا الوسطى، فتش الجوامع والبارات، سأل المارة والعرافات، وقف عند مفارق الطرق ونظر إلى جميع الجهات، لكنه لم يعثر على عائشة. ولما عاد إلى موسكو عاد يائساً ومتعباً، وبعد سنوات عاد من جديد إلى بغداد عن طريق القاهرة. ولم ينسَ البحث عن عائشة مرة أخرى.

الآن بغداد لا تهدأ، ولا تترك أحداً ينام، فقد واصلت صخبها على شكل «ثورات» تلغي الجديدة كل ما قبلها، وفي الطابق الرابع بوزارة الثقافة

والإعلام يواصل البياتي مراقبة ما يحصل حواليه، إلى أن تضيق روحه ويطلب أن يغادر، وهكذا تبدأ رحلته الجديدة إلى إسبانيا، ويشاء القدر أن تكون هذه الرحلة الأخيرة.

قُدِّر له قبل هذه الرحلة أن يقضي فترات في براغ، وبيروت، لكنها ما استمرت طويلاً، ولم يجر خلالها البحث عن عائشة، فإنه كان أطيافاً أخرى أخذت أسماء متعددة، ظناً منه أنها هي لكنها لم تكنها، وهكذا أصبح على يقين أن عائشة بعد أن تعبت من هموم المشرق شدّت الرحال إلى المغرب، ثم عبرت عدوة المتوسط لتحل في إسبانيا، الأمر الذي سيجعل أبا علي، عبد الوهاب البياتي، يقضي سنوات عشراً ينقِّب في جميع أنحاء إسبانيا، خاصة في الأندلس، عن عائشة التي ذكر لها أنها تقيم في إحدى الدساكر القديمة، بحث، وأطال البحث، ولم يترك ظل مِئذنة، أو زاوية شارع، أو بقايا ضريح إلاَّ وبحث هناك، لكن عاد من تجواله خائباً ويائساً، ولم يطق البقاء أكثر من ذلك في إسبانيا، وهكذا غادرها مطوفاً في أنحاء كثيرة، إلى أن استقرَّ به المقام في عمان، باعتبار هذه المدينة بوابته إلى بغداده، إلى مدينته الأم، وكان متأكداً هذه المرة أنه سيجد عائشة هناك، وأنها تنتظره منذ وقت طويل، وسوف تعترف له أنها لم تغادرها أبداً!.

في كل المرات التي تحدثنا فيها عن المدن، وهي ليست قليلة، كان البياتي يطيل وقوفه عند دمشق، وعند ابن عربي بالذات. وفي لحظات

البوح كان يقول: إنه يتمنى أن يجد له قبراً قرب هذا الصوفي، الذي طوح الآفاق واستقرَّ أخيراً في هذه المدينة.

قبل أيام عاد عبد الوهّاب البيّاتي من زيارة لإيران، وقد كانت هذه الزيارة مكرّسة لعدد من ملهميه: السهروردي، وجلال الدين الرومي، والبسطامي، ذهب لوداعهم، وليقول لهم: إنه تعب من البحث والتجوال، وآن له أن يستريح.

ربما لم يسأل في هذه الزيارة عن عائشة؛ لأنه كان متأكداً أنها في داخله، وهناك يجب أن ينظر عميقاً كي يكتشفها، ولا يدري إن عثر عليها في أيامه الأخيرة، في ساعاته الأخيرة.

لا أتصوّر الحياة الثقافية العربية دون أبي علي، دون عبد الوهّاب البيّاتي فقد كان إنساناً استثنائياً، اختلفت معه أم اتفقت، وكان خلف الهدوء الذي كان يلفه كله ناراً عاصفة وكان يحبّ حتى وهو يهجو، وحين ينفضُّ السامر ويخلو المكان كانت تتساقط من عينيه الدموع، ولا يعرف إن كان يبكي نفسه أم عائشة أم الحياة القلقة التي عاشها.

وقد يواصل عبد الوهّاب البيّاتي، في سفح قاسيون، البحث عن الشيء الذي لم يجده في مكان آخر.



تحوّلات البياتي

محمد جمال باروت

حين مات عبد الوهّاب البيّاتي واستحال إلى شعاع في قلائد النور الكوني الذي رآه البياتي يغمر العالم بجماله الأبدي، كان لما يزل في الطريق الإسراري إلى مدينة فاضلة قصية. أخذت لديه أشكال بحث رؤيوي عن بابل وشيراز ونيسابور الجديدة. وفي هذا الطريق الذي سلكته سلالته من رائين وقراء لغات بعيدة وسارقي نار ونور اكتسبت رؤيوية البياتي شكلاً جديداً مميزاً هو شكل ما نسميه بغنائية أسطورية، تبحث في تحولاتها وأقنعتها ومغامراتها عن انبعاث «مملكة اللّه» الفاضلة في «ربيع الشعوب»، ورموزه الانبعاثية الأصلية التي تدور مراجعها إلى أرض الحضارات الأولى وأسئلتها. وظهر البياتي في هذا الشكل الجديد المميَّز الذي سيعطي مضموناً حقيقياً لموقعه في ريادة الحركة الشعرية الحديثة وكأنه «يقطع» مع أشكاله السابقة البسيطة.

كان البيّاتي الشّاب قد بدأ رومنتيكياً في «ملائكة وشياطين» (1950) على «طريقة الشباب»، في الثلاثينيات والأربعينيات في مواجهة «الطبقة المدرسية» أو الكلاسيكية الجديدة، فكان مسكوناً بالصور الرومنتيكية الشائعة في تلك «الطريقة» من عرائس الغابات والدمع القاني ونار العاطفة والأحزان ومقابر الربيع وبؤس الليالي وأغاني الزوارق، وصمت الحديثة وكآبة الفضاء الموحش.

إلاَّ أنَّه سرعان ما تخطَّى هذه «الطريقة» حين أصدر «**أباريق مهشمة**» (1954)، الذي مثل يومئذٍ محطة نوعية في تطور حركة الشعر الحديث، ورغم بروز اهتزازات الذات القلقة والمتمردة في هذه المجموعة الفتية، فإنها ستمثل أول برعم لما يمكننا تسميته بمرحلة البيّاتي الفولتيرية التبشيرية إذا ما كان ممكناً استخدام تمييز ماكس سبندر ما بين الأنا الفولتيرية والأنا الشعرية، وقد ميَّزت هذه المرحلة شعر البيّاتي في الخمسينيات، وظلّت أصداؤها تتردد حتى في ديوانه «سفر الفقر والثورة» (1956)، الذي كان علامة نهايتها.

ظهر البياتي في هذه المرحلة مندفعاً خلف «عالم يولد تحت الراية الحمراء» وتشع عواصمه من موسكو إلى برلين بالثورة العالمية. وقد خنقت هنا أناه الفولتيرية التبشيرية بمفاهيمها الإيديولوجية البسيطة عن نفعية الفن، وعكسه للواقع وتحزبه الإيديولوجي - الطبقي ووظيفته التربوية والاجتماعية والأنا الشعرية المضطرمة والهاجعة في أعماقه. وقبيل أن يبتعد البيّاتي عن الحزب الشيوعي العراقي في حدود عام 1959 ويتركه، كان قد أصبح واحداً من «مالئي الدنيا وشاغلي الناس» في الخمسينيات. وكي نفهم ذلك فإن علينا أن نضع هذا «التألق» في سياق الاستقطاب الإيديولوجي - السياسي الحاد في الخمسينيات حول استملاك الشعر الحديث وتوظيفه سياسياً. إذ كان البيّاتي في إطار مجلة «الثقافة الوطنية» التي كان الماركسيون بشكل أساسي وراءها.

وقد تبنَّت هذه المجلة ما سمي يومئذٍ بـ «الواقعية» في مواجهة دعوتي الالتزام القومي - الوجودي في مجلة «الآداب» ومجانيّة الفن أو «الفن للفن» في جمعية «أهل القلم» اللبنانية التي ترأسها الشاعر اللبناني البارز صلاح لبكي. وقد تركز الصراع والاستقطاب قبيل انطلاقة حركة مجلة شعر (1957)، ما بين القوميين (الآداب) والماركسيين (الثقافة الوطنية). وشكل البيّاتي الشاب أحد موضوعاته الأولى، إذ ستنشر «الآداب» في عام 1953، قصيدة للشاعر السوري الشاب والبعثي يومئذٍ علي الجندي حملت عنوان: «العيد المر» وأهداها الجندي الشاب إلى «عبد الوهاب البياتي صائد الذباب الكسول»، أي الشاعر غير الملتزم. وأثارت هذه القصيدة لاسيما في العراق المحتدم ضجيجاً سياسياً تخطّى كثيراً قيمتها الشعرية.

في هذا السياق المضطرم الذي تحكم فيه الإيديولوجيات خناقها على الشعري وتحاول أن تتحكم فيه، وصف شعر البياتي بـ«الواقعية» التي استخدمتها الأحزاب الشيوعية العربية كأداة إيديولوجية فنية نضالية، فكان شعر البياتي هنا شعر موضوعات يتميز خطابها الشعري بالبساطة والتحريض وتوخِّي واقعية التصوير الشعري للحالات والنماذج البشرية وتعضيد البطل الإيجابي المنتمي وتبسيط الخطاب الشعري بهدف تحصيل أعلى أثر إيصالي وتحريضي له. إلاَّ أنَّ البياتي ما إن يتخطَّى تلك الأنا الفولتيرية التبشيرية المباشرة إلى أناه الشعرية العميقة حتى يتحول من

تبسيط الخطاب الشعري إلى ما يمكن تسميته بـ «لغة عليا».

وقد انقلب هنا مفهوم البياتي جذرياً للشعر، فلم يعد الشعر انعكاساً للواقع بل خلق له، ينكشف هذا الانقلاب - التحول بشكل خاص فيما يمكننا تسميته بمرحلة البياتي الصوفية الحديثة التي شكل ديوانه «الذي يأتي ولا يأتي» (1966)، منعطفها الأساسي، الذي سيحدد في الواقع كل آفاق تطوره الشعري اللاحق، وظهر البياتي هنا بشكل واضح وكأنه يعمق اتجاه القصيدة التموزية (الانبعاثية) التي ارتبط تبلورها بحركة مجلة شعر، واحتملت استيعاب التجربة المسيحية في الشعر العربي الحديث. بكلام آخر تحول البياتي في هذه المرحلة من إطار الرؤية الفكرية والسياسية المشحونة بالشعر للواقع إلى إطار الرؤيا بطبيعتها الميتافيزيقية ووظيفتها الحدسية التي تنقل معرفة داخلية مباشرة.

وكان من أبرز ما ميَّزه في خط القصيدة التموزية التي بات مندرجاً في فضائها هو محاولة اكتناه المضمون الحضاري للرمز الأصلي. بكلام آخر أخذ النمط الأصلي النابع في اللاشعور الجمعي حسب يونغ يحتل موقعاً مركزياً في شعره، ويكتسب فيه الشاعر خصائص العراف والنبي والمسيح والكائن الكوني والمنقذ الذي يموت فرداً ويبعث جماعة. ويرى الموت رحلة إلى أرض أخرى. يتواصل فيها مع لغة الكون.

لم تعد لغة البيّاتي الشعرية في هذه المرحلة لغة الرموز التعبيرية البسيطة التي تنسجم مع الفهم الانعكاسي للشعر بقدر ما غدت لغة الرموز

الديناميكية أو التكوينية. ولا يعبر الشعر هنا عن العالم بقدر ما يكون عالماً جديداً، وقد تحرّر البياتي في إطار ذلك من الغنائية البسيطة الوجدانية وذات الميراث الرومانتيكي واندرج في فضاء غنائية أسطورية تشكل الرؤيا الشعرية ببنيتها اللغوية متعددة الدلالات لحمتها الأساسية وتحقق نوعاً من «معادل موضوعي» إليوتي كان البياتي يومئذٍ مهتماً بشكل مركزي به، ووجد في الرمز الأسطوري المكثف والطويل أو في «الأقنعة» كما يقول شيخنا إحسان عباس بنيته الأساسية.

مما لا شك فيه أنَّ البياتي قد عاد هنا إلى اكتشاف الرموز الأسطورية الكلية التي سبقه إليها الشعراء التموزيون، إلاَّ أنه اكتشف في حمى رؤياه رموزاً تكوينية جديدة اكتسبت لديه خصائص الرموز الخالقة للعالم مثل النور والنار والينبوع، التي يحيل كل منها إلى رمز أسطوري ضمني ينقله البيّاتي من مكان إلى آخر أو يقوم بإزاحته.

ولعل هذه الغنائية الأسطورية هي ما دفعت البعض إلى أن يرى في شعره تمثيلاً لـ «الرومانس» الذي يميز البياتي بالطبع غير أنه يميز في الآن ذاته معظم قصائد الشعراء التموزيين. وكان رمز عائشة - على سبيل المثال لا الحصر - من أبرز رموز البيّاتي في مرحلته الصوفية الحديثة الأخيرة، ومن أكثرها تواتراً في «الذي يأتي ولا يأتي» و «في الموت في الحياة» و«قصائد حب على بوابات العالم السبع» و«كتاب البحر» و«سيرة ذاتية لسارق النار».

تكتسب عائشة هنا دلالات لا متناهية، وتضرب هذه الدلالات في ميراثٍ أفلوطيني محدث عاد إليه البيّاتي وغاص فيه وصار عبره صوفياً حديثاً، فتكتسب عائشة هنا في سياق ذلك الميراث قوة «المعنى» إنَّها (بالحرف الكبير) الكلمة - الخالقة للعالم التي تظهر تجلياتها في صور لا متناهية. لا تساوي هذه الصور المعنى، بل هي إحدى تعيّناتها أو تجلياتها. فيبقى المعنى مؤجلاً باستمرار، كأنه «الجرّة الذهبية» في هيكل النور الكوني، التي يبحث عنها الرائي من دون أن يصل إليها. وإذا كان البيّاتي الذي بحث عن انبعاث «مملكة اللّه» الفاضلة في «ربيع الشعوب» قد تقمص رموزه التكوينية أو تلبسته في حركة «الميثامورغوس» المعروفة في الأفلوطينية المحدثة، فإن موته في دمشق التي رآها «قلادة من نور» لن يكون إلاَّ رحلة إلى أرض أخرى تغمر فيها «مملكة اللّه» ونورها الكوني العالم.



البيّاتي ... شاعرنا

جمال الغيطاني

شباط «فبراير» 1998م، زار البيّاتي القاهرة لآخر مرة، وكنت أكاد أوقن أنه يتأهب للعودة إلى أرض الوطن الأكبر، إلى رحاب الكون الفسيح، حيث ترتد الفروع إلى أصولها، وتتصل البدايات بالنهايات، والأمر دوري، البعض يدرك بالفعل، ومنا من ينتظر.

تأملات ملامحه فأدركت أنه على أهبة، كانت أنفاسه قصيرة، متلاحقة، تسمع من مسافة، وكان يدخن السيجارة في إثر الأخرى. ويحدق إلى بعيد، إلى نقطة لا يمكن إدراكها، أعرف تلك النظرة جيداً، إنها نظرة التأهب والسداد.

لا أذكر متى التقيت به، لكنها الستينيات بالتأكيد، عندما أقام بالقاهرة زمناً، وكان من رواد مقهى ريش المنتظمين، وخاصة ندوة الأستاذ نجيب محفوظ.

كانت القاهرة إحدى محطات المنافي العديدة التي تنقّل بينها، كنا نقرأ أشعاره، ونحفظها ونرددها، كان شاعراً كبيراً أصيلاً، فرع جميل من دوحة الشعر العربي الذي استوعب الأصيل وتجاوزه إلى الجديد، الجميل، غير مقترب أو متأثر بدواعي الحداثة المدمرة التي دفعت بالشعر العربي إلى نفق معتم، فأفقدت الشعر الشعر، وباعدت ما بين الجمهور وبينه، كانت هذه القضية شاغلاً رئيسياً للبيّاتي، ولكل الشعراء الكبار الذين صمتوا

لفترة طويلة ربما درءاً لتهجمات الحداثيين، وتعاليمهم غير المبرر، وارتفاع أصواتهم عبر ما يشبه التنظيم المتقن الذي ألحق بالغ الأذى بالشعر العربي، لذلك لم أعجب عندما هاجمه بعض من هؤلاء قبل مواراة جثمانه الثرى بتشف غريب في الموت، وبما يخالف ويتنافر حتى مع القيم الإنسانية عامة والعربية خاصة، ويكفي أن يتساءل الإنسان، أين كان هؤلاء في حياته؟!.

كان البياتي ساخراً عظيماً، ولو جمعت أوصافه للبعض، وتعليقاته الثاقبة التي فاض بها في مجالسه لكانت سجلاً فريداً، ونادراً، وبقدر أحاديثه التي تحوي من السخرية قدراً، إلاّ أنها تفيض بمرارة دفينة، ولعل مصدر هذا الحزن الفاتر في عينيه، تلك الأحزان العامة والخاصة التي عصفت به، وجعلت من حياته سلسلة من المنافي المستمرة، وفي حوار بيننا سألته عن مكتباته الخاصة، وراح يقص عليَّ علاقته بكتبه، وكيف أنه ما إن يشرع في تكوين مكتبة حتى تنشأ ظروف تجبره على مفارقتها، وإنني لأعرف معنى علاقة المبدع بمكتبته، ومقدار الألم الناتج عن فراقها قسراً، لكم تألمت وهو يقص علينا اضطراره إلى دفن بعض نوادر كتبه في حديقة بيته البغدادي قبل خروجه الأخير منها.

لم يكن البياتي يعيش في ثراء، كان مستوراً كما نقول في مصر، وعندما حصل على جائزة العويس منذ سنوات قريبة، أنشأ جائزة من ماله الخاص للشباب، لكم أتمنى أن يعمل محبوه على استمرارها وتحويلها إلى هيئة دائمة.

من منفى إلى منفى، ومن مكان إلى آخر، وعندما عاد الدكتور عز

الـدين إسماعيـل إلى بيتـه فـي زيارتـه الأخـيرة للقـاهـرة، وفـي صـالـة الفنـدق الذي أقام به، جرى حوار قبل انتقالنا إلى البيت، سألته عن الرحيـل، قـال: إنَّـه لم تعـد لديـه رغبـة فـي السـفر إلى بلـد فـي العـالم بقصـد الفرجـة أو النزهـة أو لحضـور المؤتمرات، إنـه لا يـزور إلاَّ الأمـاكـن الـتي أودعهـا جـزءاً عزيـزاً مـن ذكـرياتـه، وبالتأكيـد كـانـت القـاهـرة ركنـاً ركينـاً عنـده، وكنـت ألحـظ مـدى عمـق العلاقـة ورقيـق الصـلـة بـين البيـاتي وصـحبه فـي مصـر، لم يخـالجني الشـعور قـط أنـه ضـيف، ورغـم لهجتـه العراقيـة، البغدادية التي كنتُ أحب سماعها منه، إلاَّ أنه ابن بلد «قاهري صميم».

أستعيد أحزانه، ونظراته بعد حرب الخليج الثانيـة، ودمـار العـراق، وفقـده لابنته نادية، وتعد مراثي نادية من الأعمال الشعرية الرفيعة النادرة.

منذ أعوام قليلة، جاء البيـاتي إلى مصـر، ومضـينا إلى زيـارة سـيدنا ومولانـا الحسـين بصـحبة الأخ الحمـيم والشـاعـر العظـيم سـعدي يوسـف، لم تكـن المرة الأولى التي أصحب فيهـا البيـاتي إلى القـاهـرة القديمـة، فلكـم سـهرنا فـي الفيشـاوي، واتصلـت الحميميـة فـي الـزمن الجميـل... فوجئـت بعـد أيـام بقصـيدة جديـدة تصـل إلينـا مـن جريـدة (أخبـار الأدب) بالفـاكـس، اعتـدنا ذلك خلال السنوات الأخيرة، ما إن يفـرغ حتـى يرسـل شِـعره علـى الفـور إلى (أخبـار الأدب)، ثمّـة علاقـة خاصـة ربطنـا بـه منـذ صـدور العـدد الأول فـي يوليـو عـام ثلاثـة وتسـعين، غـير أن تلـك القصـيدة بالـذات كـان لهـا وضـع خاص، عنوانها «جمال الغيطاني» لم تكن مهداة إليَّ: إنما عنِّي.

عبد الوهّاب البيّاتي شاعر كبير، وقصيدة له لا يمكن أن تظلَّ حبيسة الأدراج، نشرتها في نقطة عبور، وبعد شهور صدر له ديوان جديد، يتضمن ما رثى به أحبابه، عنوانه «كتاب المراثي» وفوجئت أنه ضمن الديوان قصيدته عني، هكذا رثاني حياً، ولم أعجب فكثيراً ما تمر بالإنسان لحظات يرثي فيها نفسه، فإلى لقاء أيها الشاعر العظيم والصاحب الحميم، وهنيئاً لك رقدتك بالقرب من ضريح شيخنا الأكبر عند سفح جبل قاسيون الدمشقي.



كتابات على قبر البيّاتي

بيار أبي صعب

ينتمي عبد الوهّاب البيّاتي الذي غافله الموت قبل أيام عند الفجر، وحيداً على كرسيه في دار فارغة إلاَّ من الأطياف، إلى تقليد عربي وراسخ طبع الجزء الأكبر من الثقافة العراقية المعاصرة، الممزّقة بين منافي الداخل والخارج. ألم يمت قبله الجواهري في دمشق، كما قضى بلند الحيدري في لندن، والسياب في الكويت.....؟ كأن الموت بعيداً عن بغداد، القاسم المشترك بين هؤلاء الشعراء، هو فعل الانتماء الأخير، لشعراء كتبوا كل على طريقته صفحات مشرقة في مسيرة الثقافة العربية المعاصرة.

لكن علاقة ملتبسة ربطت صاحب «**أباريق مهشّمة**» بالسلطة على الدوام، خلافاً لما أصرَّ على تأكيده في السنوات الأخيرة، إذ أعاد كتابة تاريخه واخترع أسطورته، أسوة بشعراء كثيرين غيره: من علاقته بالحزب الشيوعي الذي لعب دوراً حاسماً في تقديمه إلى العالم، حين كان السياب بدأ ينحسر في عزلته وجحيم نظرته النقدية إلى الرفاق، مع العلم أنَّ البيّاتي لم يترك فرصة إلاَّ وذكَّر فيها أنَّه لم ينتم إلى أي حزب... وصولاً إلى النظام العراقي الذي تعامل مع الشاعر طويلاً كأحد رموزه وأعيانه، قبل أن يضع الأخير بينه وبين السلطة مسافة تطورت إلى القطيعة.

فالشاعر المشاكس. اللاّذع، ليس بالراديكالية والنقاء اللذين شاء أن يظهر بهما في الصور الرسمية، لكن هذا النوع من المفارقات، يلازم معظم رموز النخبة الإبداعية العربية الغارقة في حالة من الفصام القسري، في جيل البياتي ومن تلاه.. والوعي «الخوارجي» لدى البيّاتي، يجد جذوره في بغداد الخمسينيات، حيث عاين البؤس وتعلم الغضب. وفي هذا الرحم الذي احتضن التجارب الطليعية، وحيث كانت قصيدة كافية لهزّ وجدان الشعب، خطا البياتي خطواته الأولى في عالم الشعر، ليكون أحد مؤسسي الحداثة الشعرية، أي ما عرف حينذاك بالشعر الحر.

حين أصدر مجموعته الأولى «ملائكة وشياطين» (1950) كانت نازك الملائكة قد أصدرت «عاشقة الليل» (1947)، و«شظايا رماد» (1949)، وبلند الحيدري «خفقة الطين» (1946)، والسيّاب «أزهار ذابلة» (1947).... وكانت العاصمة العراقية هي المختبر الحقيقي للشعرية العربية.

ثم جاءت مجموعة «أباريق مهشّمة»(1954) التي حيّاها إحسان عباس، لتكرّس تجربة إبداعيّة بدأت رومانسية، ولم تتخلَّ أبداً عن الغنائية. وكان البيّاتي يأسف لكون «الشعر العراقي الحديث حرم من وجود تيار رومانسي محض، ما جعل حركة التجديد تنتقل من الكلاسيكية إلى الشعر الحديث».. لكن لغته راحت تشبه نفسها مع الوقت، وقصيدة

التفعيلة تحوّلت «كلاسيكية جديدة» فيما بقي هو يعتبر بنفسه شاعراً مجدداً أو يدعو إلى نقاء اللغة، وتغليب التجربة على التجريب.

آخر ضلوع المربّع الذهبي يرحل اليوم (بعد أن غابت نازك الملائكة في عزلة المرض القاهرية)، معيداً إلى الذهن النقاشات التي لا تنتهي حول ريادة الشعر الحديث، والتي لم يحسمها البيّاتي في قصيدته الشهيرة «كتابات على قبر السيّاب».

أما الصداقات التي بقي الشاعر يجاهر بها، فهي التي جمعته بشعراء مؤتمر السلم العالمي (1958)، أراغون، نيرودا، ناظم حكمت.... كما أن الشاعر الذي ترعرع في «باب الشيخ» على خطوتين من ضريح عبد القادر الكيلاني، تماهى مع خلانه الصوفيين: ابن عربي، السهروردي، الشيرازي، سعدي... فالشيخ المتوحد بقي وفياً للطفل الذي لعب ذات يوم مع أترابه بجمجمة أفلتت من حفار القبور، وتعلم أن الإبداع وحده بوسعه أن يقهر الموت، عبر التصالح معه، وهرب من الواقع إلى «الزمن الشعري» الذي يختصر كل الأمكنة... وكان أن تحققت أمنيته في أن «يرقد تحت قباب النور».



عبد الوهاب البيّاتي
مختارات شعرية

ملائكة... وشياطين

كطلاسم الكهان ألواني

وعرائس الغابات ألحاني

ألبستها من زهر أوديتي

ثوباً، ومن أوراق بستاني

وغمستها في النبع عارية

وغسلتها في دمعي القاني

ورفعتها عقداً لفاتنتي

حباته أبيات ديواني

❖ ❖ ❖

حياته شعر يضيء على

غاباتها وينير ودياني

ويدق باب الحبّ مرتعشاً

كالحلم في أجفان ولهان

ويهزُّ في أعماقه صوراً

برّاقة كبريق ألواني

حتى إذا ما النوم أسلمه

لذراع من يهوى تناساني



أيلوذ في أدراج مكتبه

شعري وتنسى فيه أشجاني

وهناؤه من نار عاطفتي

شفتاي تغزله وأحزاني

وحبيبه من نسج أخيلتي

أبدعته ولهيب حرماني؟

تلك الليالي السود شاهدة

عني ويشهد سهد أجفاني



يا قارئي، من لست أعرفه

قف وقفة السكير في حاني

إن كنت ممن لم يذق ثمر الـ

ــــفردوس من أنياب ثعبان

فاطرحه من كفيك معتصماً

باسم الذي أودى بإيماني

إني أخاف عليك من حلم

أمواجه تبكي بشطآني

❖ ❖ ❖

إني أخاف عليك من نزق يغري ملائكتي بشيطاني

الجنة الخضراء في دمه

وجهنم الحمراء سيَّان

أوتاره أهداب آلهة

وجناحه أشواق إنسان

في القاع تصفعه الرياح فلا

يدري من المصفوع والجاني

❖ ❖ ❖

يا قارئي قف خاشعاً فعلى

أوراقه إشراق وجداني

إشراق أوراق ملثمة

بطلاسم ورموز كهان

واقرأ وراء سطوره عبراً

منها يطل عليك تحناني

وعيون شيطان مدامعه

تغري ملائكتي بعصياني



بـرعم

أخاف على الورد من جارحيه

ويجرحني فـي الهوى برعم

ويزْكو فيلثمه السارقون

ويحرم عن لثمه المغرم

وتجرحه خائنات العيون

وعيني له أبداً بلسم

❖ ❖ ❖

وأبكي وأبكي لعلّ دموعي

إذا لامست جرحه يبسم

وأحنو عليه كأمٍّ رؤوم

وأكتم حبّي فلا يعلم

وينفر مني كظبي وديع

أحاق به صائد مجرم

وإني عليه ومنه أخاف

فأقتل في الصمت ما أكتم

وأطوي إليه صحارى الحياة

يمزقني سرّي المبهم

❖ ❖ ❖

على طلل الذات مني بقايا

تشدّ الجراح ولا تُهزم

إذا أسر العاشقون الهوى

فإني إلى الحبّ أستسلم

❖ ❖ ❖

وأقطع ليلي أنادي النجوم

وليلي من قلبه أرحم

أُنادي فتغمرني الذكريات

ويغمرني مَوْجُها المظلم

وتعصف بي عاصفات الرّدى

فأرنو إليه وأسترحم

❖ ❖ ❖

وأبكي وأبكي لعلّ دموعي

إذا لامست جرحه يبسم

وأحنو عليه كأمٍّ رؤوم

وأكتم حبي فلا يعلم



أنا يا رماد

أنـــا يـــا رمـــاد بقيّـــة
من نارهــا فخــذ البقيّــة

هـل بعـد أن داس الخريـــــ
ــــف زنابقي تبكي عليّه

وتحـــور أشـــواقي دمـــا
متوهجـــاً فـــي أصـــغريّه

أُســـقاه أوهامـــاً فـــلا
أُسـقى سـوى خمـر المنيّــة

فـــأموت كـــل هنيهـــة
وأعـــود للـــدنيا الشـــقيّة

لا خــــلَّ يفهمـــــني ولا
تصـــغي رؤى نفســـي إليّـــه

لا شـــــيء إلاَّ واحـــــة
خضـراء فـي حلـك العشـيّة

الأفـــق يحجبهـــا فـــلا
فتنهـــدت تلـــك البقيّـــة



أغنية النار

مــن صــارخ الألــوان　　　مــن أدمــع الــنيران

ســويت يــا شــيطان　　　أبــدع ممــا كــان

تمثالك العاري

❖❖❖

منحتــه... الوجــدان　　　وهبتـــه النســـيان

سميتـــه الإنســـان　　　وقلـــت هـــذا كـــان

بالأمس خماري

❖❖❖

سمـــاؤه عينـــان　　　وأرضـــه نهـــدان

فـــي قلبـــه جرحـــان　　　الشـــك والإيمـــان

ومخلب ضاري

❖❖❖

يهـــمّ بالعصـــيان　　　فيحـــرق الصـــلبان

ويطلـــب الغفـــران　　　وينشـــد الســـلوان

بالسجن والعار

❖❖❖

عبـــد إلى الســـلطان　　　أربابـــه عبـــدان

الـــذلّ والعـــدوان　　　ألهمـــه فـــي ألحـــان

أغنية النار

❖❖❖

ظمآن

ظمآن للألوان والعطر ... وللغرام العاصف المرّ

لخمرة يصرعني وهمها ... لغير ما في الخمر من سكر

إلى أب حان وأُمّ لها ... أبثّ همي دون ما عسر

لقبلة مشبوبة نارها ... تحرق ما يلمسه ثغري

لمنصت أفضي له مسهبا ... ما لست أدريه وما أدري

لضحكة مجنونة أرتمي ... من بعدها ميتاً من الذعر

ظمآن للري وما حيلتي ... والجدب عقبى حبي العذري

سيزيف قد كان ولم يزل ... يهمّ بالشكوى ولا يحري

ترمقه عن كثبٍ حسرة ... غوارب الأمواج في البحر

والنجم من عليائه ساخرا ... يرمقه بالنظر الشزر

وهو على صخرته منحنٍ ... تهوي به من قمة الدهر

ظمآن للموت وما ضرني ... إن متّ مطوياً على سرّي



أحلام شاعر

وما ذلك الحالم المنزوي

بصومعة الفكر إلاَّ خيال

يحس بصوت الحياة البغيض

يناديه في قسوة أن تعال

فيمعن في حلمه ساخراً

بأطيافها الشاحبين الثقال

بمهزلة قيل عنها الشروق!

بأفكوهة قيل عنها الزوال!

❖ ❖ ❖

لياليه فجرٌ ومن صمتها

يحوك الأغاني.. أغاني الغزل

ويحيا على قبل من خيال

ويثمل منها كأشهى القبل

وأحداقه في الهزيع الأخير

ترى ما يراه بضوء الطفل

وتخترق الغيب والمنتأى

بأجنحة من لهيب الأمل

❖❖❖

وإن رقص الفجر بين التلال

ومرت يداه على الصومعة

وهوّمت الأعين الساهرات

على وقع أقدامك الموجعة

ورددت الأرض يا شاعري

علام الركون لهذي الدعة

تعال مع الريح بين التلال

تعال مع الموت والزوبعة

❖❖❖

تعال نشيد بأحلامنا

على شاطئ الحبّ كوخاً جميل

نوافذه من دموع الضحى

وأستاره من لهاث الأصيل

وموقده قبل يصطلي

عليها ملاك هوانا النبيل

فننسى الوشاة وما أرجفوا

علينا وننسى التراب الذليل



ألا من سبيل؟ ألا من خدين؟

يقود خطاي لكوخي البعيد

أأقضي وهذا القطيع البليد

سيدفنني في ثراه البليد

ويبكي عليَّ ببضع سطور

مشوَّهة كأغاني العبيد

ويسلم فكري وإبداعه

إلى جدث بارد من جليد

وفي الجزر النائيات التي

تلوذ بها آلهات البحر

ويكتنف الليل غاباتها

ويحجب عنها ضياء القمر

سيسمع ألحاني الصائدون

تغني بها الرياح بين الشجر

فتخشع أبصارهم هيبة

لروح خفي أهاج الذكر

❖ ❖ ❖

وفي واحة الحبّ حول القليب

وتحت ظلال النخيل الحزين

سيسمع أصداءها العاكفون

على وحشة البيد والذاهلون

فتهمس «ليلى» إلى «قيسها»

ألا في الهوى كل شيء يهون

ويبكي السراب على شاعر

وراء السراب أطال الحنين



وفي ظلمات الخريف الكئيب

وحول لهيب الشتاء الطويل

سيقرأ ديوانيَ الحالمون

وينشد شعري هزار الحقول

فيهتف في سرّه عاشق

ألا ليتني مثل هذا أقول

وأما التي في ثلوج الهوى

فتسأل حيرى وماذا تقول!..



سوق القرية

الشمس، والحُمُر الهزيلة ، والذبابْ

وحذاءُ جنديٍّ قديم

يتداولُ الأيدي، وفلاحٌ يحدّقُ في الفراغْ:

«في مطلع العام الجديدْ

يداي تمتلئان حتماً بالنقودْ

وسأشتري هذا الحذاءْ»

وصياحُ ديك فرَّ من قفصٍ، وقديس صغيرْ:

«ما حكَّ جلدكَ مثلَ ظفرُك»

و«الطريق إلى الجحيمْ

من جنة الفردوس «أقربُ» والذبابْ

والحاصدونَ المتعَبونْ:

«زرعوا، ولم نأكلْ

ونزرع، صاغرينَ، فيأكلون»

والعائدونَ مِنَ المدينة: يا لها وحشاً ضريرْ

صرعاهُ موتانا، وأجسادُ النساء

والحالمون الطيبون».

وخوارُ أبقارٍ، وبائعةُ الأساور والعطورْ

كالخنفساء تدبُّ: «قبّرتي العزيزة» يا سدوم!

لن يُصلحَ العطّارُ ما قد أفسدَ الدهر الغَشوم

وبنادقٌ سودٌ ومحراثٌ، ونار

تخبو، وحدّادٌ يراودُ جفنَه الدامي النعاسْ:

«أبداً على أشكالها تقَعُ الطيورْ

والبحرُ لا يقوى على غسل الخطايا، والدموعْ»

والشمسُ في كبد السماءْ

وبائعاتُ الكرم يجمعنَ السلال:

«عينا حبيبي كوكبانِ

وصدرُهُ وردُ الربيع»

والسوقُ يقفز، والحوانيت الصغيرة والذباب

يصطادُه الأطفالُ والأفق البعيد

وتثاؤُبُ الأكواخِ في غابِ النخيل



انتظار

صلِّ لأجلي

عَبْر أسوار

وطني الحزين، الجائع، العاري

وعلى رصيف المرفأ انتظري

يا كوكبي الساري

وحديث سمّاري

قلبي مياهُ البحر تحمله

تفاحةٌ حمرا... كتذكار

وعبير آذار

ورفاق أسفاري

يتلمّسون طريق عودتهم

ورسائلي وأبي وأزهاري

وكلبُنا الضاري

يعوي، وعينا شيخ حارتنا

مصلوبتان على لظى النارِ

وشجيرة الليمون يسرقها

مهما تعالتْ ، صبيةُ الجارِ

... وكقُبّرات الصبحِ ، هائمة

والموت والثارِ

ستظلُّ أفكاري

تعلو وتعلو عَبْر أسوارِ

وطني الحزين، الجائع، العاري

وأنا وأطماري

في غربة الدارِ

وحدي بلا حبٍّ وتذكار

❖ ❖ ❖

الذئب

ولمحتُ في عينيكِ

إنساني

الضائعَ ، المتهافتَ، الفاني

ذئباً يدبّ إلى كنوزك في

أحقاب ليلٍ:

«كان إنساني!»

وتغمغمين:

«...وكان يهواني»

ومن الظلام تفوحُ أغنيةٌ

يلغو بها المذياعُ في حانٍ:

«كنزي الوحيد

حمامتي، حلمي!

يا أخت قلبي المظلم الجاني

يا نارَ أشجاني

ردّي عليَّ إنساني»..

وتناثرت خصل معطرةٌ

وعلى السرير انهد ظلاّن

وعواء حيوانِ

وتغمغمين، وأنتِ شاحبةٌ

مسحوقةٌ: « ... وغداً سينساني!»

ويغوصُ في نهديك مخلبه

ويموت في عينيك

إنساني



عشّاق في المنفى

- وأنا...

- وأنتَ؟

- أنا وحيدْ!

كقطرة المطر العقيم، أنا وحيد!

- وهؤلاء؟

- مثلي ومثلك يحفرون قبورهم عبر الجدار

مثلي ومثلك مُقبلون على انتظار

مَنْ لا يعود

وأنا وأنتَ وهؤلاء

كالعنزة الجرباء أفردها القطيعْ

لا نستطيع....

وإذا استطعنا، فالجدارْ

والتافهونْ

يقفون بالمرصاد، كالسدّ المنيع

لا نستطيع....

وأنا وأنتَ وهؤلاء

والتافهونْ

والشمسُ في الطرقاتِ تحتضن البيوت

فتُثير في النفسِ الحنينَ إلى البكاءْ

وهناك في قُللٍ من الفخّار أزهارٌ تموت

والشمس تحتضن البيوت...

وقديمُ أغنيةٍ، وأطفالٌ بها يترنمون

وباعةٌ متجولون

والتافهون يُساومون على رفاتْ

نسر صغير

سمّاه بائعُه «ضمير»

وأنا وأنتَ وهؤلاء

كالعنزة الجرباء، أفردها القطيع

بلا ربيع

بلا ربيع أو بيوت

من الشروق إلى الغروب

ومن الغروب إلى الشروق

نبقى ونبقى في انتظار

مَنْ لا يعود

لا شيءَ ينبض بالحياةْ

في هذه الجُدر البغيضة والدروبْ

يا أيُّها التعساءُ!.. - في هذي الدروبْ

لا شيءَ ينبض بالحياة

هنا. هنا العدم الرهيب

لا شيءَ ... والعدم الرهيب

والشمس تغرب والبيوت

- يتثاءب - الأطفالُ في أبوابها يتثاءبون

والتافهون يساومون ويهرفون:

«بيعُ النسور!

أجدى من القُلَل الدميمةِ والزهورْ» ..

وأنا وأنتَ وهؤلاء على انتظار...

والليل يتبعنا ككلبٍ جائعٍ عبر الجدار

❖ ❖ ❖

القنديل الأخضر

تحت جنح الليل، والصمت، وأعماقي الكئيبةْ

وعبير الأرض والليمون والماضي وحزني

لم يعد يوقظ أحلام الصبا المخذول فيّا

كان ضوء، كان في قبر، بعيداً، كان عني

الفضاء القذر، المظلم، يستنزفه شيئاً فشيّا

غير أني ، كنت أقوى

كنت من نفسيَ أقوى

كنت أهوى

لو تلاقينا على ذاك الضياءِ

كفراشين، على الأوراد غابا في عناق

واحترقنا، أنا والماضي وعيناها

على ذاك الضياءِ

وعبير الأرض، والليمون يخبو، والسواقي

كفراشين على الأوراد، والقرية تصحو من كراها

تغسل الساقية العذراء، في الفجر رؤاها

والأزاهير إلى النور تُصلّى والكلابُ

تنبح الأموات، والليل المولي، والهضابُ

وأنا أحلم في نافذتي، والعطر يخبو

غير أنّي، كنت من نفسي أقوى

كنت أهوى أن أراها

سوسن الحقل يغطي جسمها العاري، أراها

ووراء الحائط المنهار، تستجدي العصافير غناها

كان ضوء، كان في قبر ، بعيداً، كان عنّي

الفضاء القذر، المظلم، يستنزفه شيئاً فشيّا

❖ ❖ ❖

المجد للأطفال والزيتون

المجد للشهداء والأحياء، من شعبي

وللمتمزقين الصامدين

المجد للأطفال في ليل العذاب

وفي الخيام

المجد للزيتون في أرض السلام

وللعصافير الصغيرة وهي تبحث في تراب

حقلي، وللجيش المرابط في حدود

وطني الكبير

- جيش العروبة والخلاص -

المجد للشعراء والكتّاب، أحباب الحياة

الخائضين، اليوم، معركة المصير

والضاربين يد الطغاة

المجد للمرضى على سرر البكاء

وللنساء الكادحات

الأمهات.



مدينتي والغجر

مدينتي استباحها الغجرْ

مدينتي أهلكها الضجر

مدينتي، القمر

يخاف من بيوتها المنفوخة البطون

يخاف من عيون

حاكمها الشريرْ

الميت الضمير

لكنه يحبُّ في أحيائها الفقيرة السوداء

صبية عمياء!

❖ ❖ ❖

مدينتي الحزينة الصماء

تخاف من حاكمها الشرير

الميت الضمير

لكنما القمرْ

يحب في أحيائها الفقيرة السوداء

صبية عمياء

تؤمن بالفجر وبالإنسان

وترفض الإحسان

من عاشقٍ فقير

أغنية خضراء إلى سورية

عينايَ في عينيك، يا وطن العقيدة والكفاح

والنار في قلبي، وفي يديَ السلاح

أحمي حدودك من صغار النحل

يا وطن الأقاح

وأنا أغني، والجراح

صبغت سماء مدينتي

- «طلع الصباح!»

يا إخوتي

طلع الصباح

وعلى نوافذ بيتنا، كان الربيع

طفلاً يغني، والسماء

حمراءَ مثل سماء روما، يوم أحرقها عذاب

(نيرون)، مثل الحبّ يأبى أن يبوح

مثل المسيح على الصليب

وأنا أغني، والسحاب

يخفي ذرا (حرمون) عن عيني

وفي يديَّ السلاح

والنار في قلبي، فَهُبِّي يا رياح

وليُمعن الجلاّد في قتلي، فحبي لن يموت

مادام لي كوخ على (بردى) ولي أبداً رفاق

❖ ❖ ❖

للكادح العربي في عينيك

تاريخ طويل للنضال

أقوى من الأوغاد، يا وطن الرجال

❖ ❖ ❖

موّال بغدادي

بغداد يا مدينة النجوم

والشمس والأطفال والكروم

متى أرى سماءك الزرقاء؟

تنبض باللهفة والحنين

متى أرى دجلة في الخريف؟

ملتهباً حزين

تهجره الطيور

وأنتِ، يا مدينة النخيل والبكاء

ساقية خضراء

تدور في حديقة الأصيل

متى أرى شارعك الطويل؟

تغسله الأمطار

في عتمة النهار

وأعين الصغار

تشرق بالطبيعة والصفاء

وهم ينامون على الرصيف

متى أرى شعبي! يا مدينة النجوم

والشمس والأطفال والكروم

وهو يسدّ الأفق بالرايات

ويصنع الثورات

يا طفلة عذراء، يا مصارع الطغاة

وموطن العذاب والعراة



أغنية إلى وطني

إلهي أعدني

إلى وطني، عندليب

على جنح غيمة

على ضوء نجمة

أعدني فُلة

ترف على صدر نبع وتلة

أغني الشروق

أغني المغيب

أغني الربيع

أذَوِّب في حرقاتي الصقيع

صقيع ربيع بلادي، الحزين

ربيع الإله السجين

أغني البراعم

أنا لستُ حالم

إلهي أعدني

إلى وطني، عندليب

❖ ❖ ❖

أحزان البنفسج

الملايين التي تكدح لا تحمل في موت فراشة

وبأحزان البنفسج

أو شراع يتوهج

تحت ضوء القمر الأخضر في ليلة صيفٍ

أو غراميات مجنون بضيفٍ

الملايين التي تكدح

تعرى

تتمزق

الملايين التي تصنع للحالم زورق

الملايين التي تصنع منديلاً لمغرم

الملايين التي تبكي

تُغني

تتألم

في زوايا الأرض ، في مصنع صُلب أو بمنجم

إنها تمضغ قرص الشمس من موت محتّم

إنها تضحك من أعماقها

تضحك

تغرم

لا كما يغرم مجنون بطيف

تحت ضوء القمر الأخضر في ليلة صيف

❖ ❖ ❖

الملايين التي تبكي

تغني

تتألم

تحت شمس الليل باللقمة تحلم

❖ ❖ ❖

الرجل الذي كان يغني

على أبواب «طهرانَ»

رأيناه

يغني

عمر الخيّام، يا أخت ظنناه

على جبهته جرح عميق، فاغر فاه

يغني، أحمر العينينِ

كالفجر، بيمناه

رغيفٌ

مصحفٌ

قنبلة، كانت بيمناه

يغني، عمر الخيّام، يا أخت

حقول الزيت واللّه

يغني طفله المصلوب في مزرعة الشاه

وكان الموت أواه

على مقربة منه، على أطراف دنياه.

ونادانا وناداه

صياح الديك، أختاه!

وخلّفناه في السَّاحة، لا تطرف عيناه

- «وداعاً!»

قالها، واختفت في فمه الآه

- «وداعاً، لك يا طهران

يا صاحبة الجاه

وداعاً لك يا بيتي

وداعاً لك يا أماه»

ودوّت طلقة، واختنقت في فمه الآه

❖ ❖ ❖

على أبواب طهران رأيناه

يغني الشمس في الليل

يغني الموت والله

على جبهته جرح عميق، فاغر فاه.

❖ ❖ ❖

إلى ماوتسي... الشاعر

يا أيّها الليل الطويل

هذا صياح الديك من أعماق قارّتنا يبشّر بالنهار

يا أيّها الليل الطويل

أبداً جبال الموت يحجبها الضباب

والثلج والموتى وقطعان الذئاب

وحائط الصين العظيم

وعيون شاعرنا الجريح

تغفو على بيت من الشعر القديم:

«أطفال بكين العراة

سيزرعون الورد يوماً في الصخور

ويطلعون الفجر من ليل العصور

ومن أساطير الطغاة»!..

❖ ❖ ❖

يا أيّها الليل الطويل

هذا صياح الديك من أعماق قارّتنا يبشّر بالنهار

يا أيّها الليل الطويل!

لم يبق إلا ساعتان

ويطلع الفجر العظيم

من المصانع والحقول

ومن دموع الأمهات

ومشاعل الثوّار والديك المبشّر بالنهار

أبداً يصيح

وحمامة بيضاء يطلقها الصغار

عبر الميادين المضاءة والموانئ والبحار

حيث الجماهير السعيدة في انتظار

ميلاد آسيا من جديد!..



حبّ قديم

وطرقتَ بابي

بعد أن أغفى السكارى

وانتهى فصل سقيم

متوسلاً

سكران، منسحقاً، كظيم

كالأرنب المذعور

كالطفل اليتيم

وقلت، ماذا، لست أذكر يا لئيم

غير انتظارك، دونما جدوى

وراء الباب

والليل البهيم

وثلوج هذا العالم الأسيان

غطَّت في عباءتها النجوم

والحارس الليليُّ

أغفى

تحت أكداس الهموم

وقنوط وجهك في صحارى الموتِ

والعطش الأليم

وحذاؤك البالي

يجوب الليل، ينتعل الغيوم

❖ ❖ ❖

أعيادنا في الأرض

مرّت

والجحيم هو الجحيم

لن يُبعث الموتى

ولن يسقط الداء القديم

فاذهب

ودع للناس ما للناس

يا طفلي اليتيم

❖ ❖ ❖

الحبّ في الخريف

الورقةُ الأخيرة

تسقط في حديقة الأميرة

يا عندليب الموت

يا مخالب الظهيرة

لا تنبشي المسائل الصغيرة

لا توقظي الأميرة

مُدّي إلى بئر حياتي المظلم الضفيرة

ولملمي الآنية الكسيرة

ودثريني، فأنا بردان في الظهيرة

فالعين، يا حبيبتي ، بصيرة

وأمنياتي فجَّةٌ ضريرة

سفينتي أحرقتُها

بحارتي ماتوا بلا جزيرة

يا هذه القصيدة الشريرة

يا هذه الأسيرة

قصائدي أحرقتُها

قصائدي الأثيرة

الحبّ بعد حبّها

وريقتي الأخيرة

❖❖❖

مرثية إلى مهرّج

- 1 -

مهرج صغير

أراد أن يطير

فسار وهو المقعد الضرير

وراء نعش بغلة الأمير

وباع للشيطان

حماره، وأطلق العنان

ونام تحت جبل الورق

الحبر تحت رأسه نهر من الأرق

تنفس الغراب في سمائه السوداء وانطلق

ينعب في جنازة الغسق

وهبَّ مذعوراً، فحبل حلمه احترق

وغاص في مستنقع الأحزان واختنق

- 2 -

«السلحفاة تسبق الأرنب في نهاية المطاف»

معلم الخراف

كان يهش بعصاه، كانت الألفاظ

تسقط في آبار هذا الليل تحت قدم العرّاف

وكانت المتاحف

تضمُّ تيجان ملوك سبقوا السلاحف

أهذه الزواحف؟

واخجلتاه في غد تطير

تمسح ذيل بغلة الأمير

تهش عن وجه الصغار السادة الذباب

تنفض عن لحاهم التراب

فمهنة التمسيح في زماننا يبرع فيها العور والأذناب

- 3 -

كان على المسرح يبكي، كان تاج الورق الملون الكبير

يسقط تحت قدم الجمهور

وكان قوس النار...

وعنزة تنفخ في مزمار

وكان في الفراغ

يهوي، وكان وجهه ملطخاً بأرخص الأصباغ

وكانت الأبواق

تعوي وكان جبل الأوراق

ينهار تحت وطأة الزلزال

أهكذا ينتحب الرجال؟

يا أيها الغراب!

ويذبل الشباب؟

- 4 -

العالم الخاوي وآلاف الرجال يذرعون الشارع المهجور

وهو على المسرح يبكي النور

هاملت مات قبل عامين ومات قبله الجمهور

أهذه الزواحف العمياء؟

أطفأت الضياء؟

هاملت يطفو فوق سطح الليل والأشياء

متوجاً بالقش والطحالب

أهذه الثعالب؟!

أسدلت الستائر

وهو على كرسيه ينهار

محطماً يُكلِّم الجدار

- 5 -

من النظام تُولد الفوضى من تناغم الأصوات

تنبعث الصيحات

هاملت مات قبل أن يموت

سطا على إكليله الشوكي عنكبوت

كان على المسرح يبكي، كان تاج الورق الملون الكبير

يدوسه الجمهور

كان بلا مُلقنٍ، يرقص في الفراغ، فوق ظله يدور

أيتها الديدان

أتأكل النيران

هذا الحصان الخشبي، هذه الجدران

أيُبعث الإنسان؟

في هذه المقبرة الضائعة المكان



في حانة الأقدار

القمر الأعمى ببطن الحوت

وأنت في الغربة لا تحيا ولا تموت

نار المجوس انطفأت

فأَوقد الفانوس

وابحثْ عن الفراشة

لعلّها تطير في هذا الظلام الأخضر المسحور

واشرب ظلام النور

وحطِّم الزجاجة

فهذه الليلة لا تعود

- أصابك السهم، فلا مفر، يا خيّام

ولتحسب الديك حماراً، إنها مشيئة الأيّام

- الظبي في الصحراء

وراءَه تجري كلاب الصيد في المساء

والخمر في الإناء

فَعُبَّ ما تشاء

بقبّه السماء

أو قدح البكاء

في حانة الأقدار

حتى تموت فارغ اليدين تحت قدم الخمَّار

رفيقك الوحيد في رحلتك الأخيرة لمدن النمل التي تحكمها الأرقام والبنوك

- يا أيها المملوك

بكم تبيع هذه القيود؟

فهذه الليلة لن تعود

طارت، كما طار بنا بساط ألف ليلة

معانقين تحت أضواء النجوم «دجلة»

وزارعين نخلة

فداعب الأوتار

فديكُ هذا الليل مات قبل أن ينبلج النهار

❖ ❖ ❖

الذي يأتي ولا يأتي

عائشة ماتت، ولكني أراها تذرع الظلام

تنتظر الفارس يأتي من بلاد الشام

- أيتها الذبابة العمياء

لا تحجبي الضياء

عني، وعن عائشة، أيتها الشمطاء

- مغشوشة خمرة تلك الحان

سكرتَ بالمجان

وزحف الدود على جبينك المتقع الأسيان

وجفّت العينان

- مولايَ، لا يبقى سوى الواحد القيّوم

وهذه النجوم

الكل باطل وقبض الريح

- عائشة ماتت، ولكني أراها مثلما أراك

قالت، ومدّت يدها : أهواك

وابتسم الملاك

فلتمطري أيتها السحابة

أيّان شئت، فغداً تخضّر نيسابور

تعود لي من قبرها المهجور

تمسح خدّي وتُرَوِّي الصخر والعظام

- يأتي ولا يأتي، أراه مقبلاً نحوي ، ولا أراه

تشير لي يداه

من شاطئ الموت الذي يبدأ حيث تبدأ الحياة

- مَنْ كان يبكي تحت هذا السور؟

كلاب رؤيا ساحر مسحور

تنبح في الديجور

أم ميّت الجذور

في باطن الأرض التي تنتظر النشور

- من كان يبكي تحت هذا السور؟

لعلّها الريح التي تسبق مَنْ يأتي ولا يأتي

لعلّ شاعراً يولد أو يموت



بكائية إلى شمس حزيران

إلى ذكرى زكي الأرسوزي

طحنتنا في مقاهي الشرق

حرب الكلمات

والسيوفُ الخشبية

والأكاذيب

وفرسانُ الهواء

نحن لم نقتل بعيراً

أو قطاة

لم نُجرب لعبةَ الموتِ

ولم نلعب مع الفرسانِ

أو نرهن إلى الموت جواد

نحن لم نجعل من الجرح دواة

ومن الحبر دماً

فوق حصاة

شغلتنا الترهات

فقتلنا بعضنا بعضاً

وها نحنُ فتات

في مقاهي الشرق

نصطاد الذباب

نرتدي أقنعة الأحياء

في مزبلة التاريخِ

أشباه رجال

لم نُعلق جرساً

أو نَقُل للأعور الدجَّال

لِمْ لذتَ

بأذيال الفرار

نحن جيل الموت بالمجان

جيل الصدقات

هزمتنا في مقاهي الشرق

حرب الكلمات

والطواويس التي تختالُ

في ساحات

موت الكبرياء

ومقالات الذيول الأدعياء

آه لَطِّخ هذه الصفحة

هذا الخبرَ الكاذبَ

يا سارق قوتَ الفقراء

وحذاء الأمراء

بدم الصدق

وَمُتْ مثل فقاعات الهواء

لم نَعُدْ نقوى على لعق الأكاذيب

وتحبير الهُراء

واجترار الترهات

نحن جيل الموت بالمجّان

جيل الصدقات

لم نَمُتْ يوماً

ولم نعرف عذاب الشهداء

فلماذا تركونا في العراء؟

يا إلهي

للطيور الجارحات

نرتدي أسمال موتانا

ونبكي في حياء

آه لم تترك على عورتنا

شمسُ حزيران رداء

ولماذا تركونا للكلاب؟

جيفاً دون صلاة

حاملينَ الوطنَ المصلوبَ في كفٍّ

وفي الأخرى التراب

آه لا تطرد عن الجرح الذباب

فجراحي فمُ «أيوبَ»

وآلامي انتظار

ودمٌ يطلب ثار

يا إله الكادحين الفقراء

نحن لم نُهزَم

ولكن الطواويس الكبار

هُزموا هُم وحدهم

من قبل أن ينفخَ ديارٌ بنار

آه يا قبر حكيم نام بين الفقراء

صامتاً يلبس أكفان الحداد

صامتاً يُشعل نار

قُم تحدَّثْ

نحن موتى

نحن جيل الموت بالمجان

جيل الصدقات

مرثية إلى عائشة

يموتُ راعي الضأن في انتظاره ميتة جالينوس

يأكل قرص الشمس أورفيوس

تبكي على الفرات عشتروت

تبحث في مياهه عن خاتم ضاع وعن أغنية تموت

تندبُ تموزَ فيا زوارق الدخان

عائشةٌ عادت مع الشتاء للبستان

صفصافة عارية الأوراق

تبكي على الفرات

تصنع من دموعها حارسةُ الأموات

تاجاً لحبٍّ مات

تعبث في خصلات ليلِ شعرِها الجرذان

تزحف فوق وجهها جحافل الديدان

لتأكلَ العينين

عائشةٌ تنام في الما بينْ

مقطوعة الرأس على الأريكة

أيتها المليكة

رأيت رؤيا كانت السماء

ترعدُ فاستجابت الأرض لها سحابةً من نار

نسراً بلا أظفار

أَخْمَدَ أنفاسي وعرّاني من الثياب

كسا يدي بالريش والأصداف

فأصبحت يدي جناح طائر مجذاف

مددتُها فقادني النسر إلى حارسة الأموات

حيثُ الملوكُ نُزِعَتْ تيجانُهم

وكُدسّتْ وحيث لا أبواب

تُفْتَحُ أو تُغلَقُ، حيث أسدٌّ الترابِ

طعامُهُ الطينُ وقوتُ يومِهِ اليباب

فصاح بي كاهنُ هذا العالم السفليِّ وهو يشحذ السكين

مَنْ الذي أتى بهذا الرجل المسكين؟

عائشةٌ عادت إلى بلادها البعيدة

قصيدةٌ فوق ضريح، حكمةً قديمة

قافيةً يتيمة

صفصافةً تبكي على الفرات

عاريةَ الأوراق

تصنع من دموعها، حارسةُ الأموات

تاجاً لحبّ مات.

فارتفعتْ سحابةٌ من الدخان ومضى النهار

وثالثٌ ورابعٌ والنار

كانت فراشَ مرضي، وكانت الأحجار

وها أنا أموت بعد هذه الرؤيا على الأريكة

مثلك يا أيتها المليكة

أكتب فوق ورق الصفصافة

على الفرات بدمي، ما قالت العرَّافة

للريح والعصفور والرماد

أموت كلّ ليلةٍ سكران

وصاحِياً: فما أقلَّ الزاد

أجوس في بابلَ وحدي منزلَ الأموات

وحدي على خرائب الفرات

أُكَلِّم السحاب

وأنبش التراب

أصيحُ من قبر انتظاري يائساً أصيح

أقول للصفصافة

ما قالت العرَّافة

عائشةٌ عادت إلى بلادها البعيدة

فَلْتَبكِها القصيدة

والريحُ والرمادُ واليمامة

ولتبكِها الغمامة

وكاهنُ المعبد والنجوم والفرات

على فراش الموت أضجعتُكِ يا عشتار

بكيتُ في بابلَ حتى ذابتْ الأسوار

فأي خير نالني أيَّتُها العنقاء

عدتِ إلى الفرات، عدتِ موجةً عذراء

وموقداً يخمد في البرد وباباً لا يصدّ الريح

عدت كتاباً باهتَ النقوش

يقرؤه العشّاق

يبيعه الورّاق

لكل من هبَّ، لكل قارئ جديد

وعظمة باليةً وأملاً مسموم

عائشةٌ عادت إلى بلادها البعيدة

فلتبكها القصيدة

وليبكها الفرات



روميات أبي فراس الحمداني

- 1 -

جنيَّةٌ كانتْ على شطآن بحر الروم

تبكي وكنتُ راقداً محموم

على رمال الشط عند مغرب النجوم

تنتظرُ البحارةَ الموتى وتستلقي على الصخور

تمدّ للنوارس الضفيرة

تكتبُ فوق الرمل ما أقول

عانقتها وهي على شطآن بحر الروم

عاريةً تعوم

فانطفأ الليلُ وصاح البوم

أيتها العرّافة

لا تكتبي فوق رمال الشطّ ما أقول

فسيدُ الآلام في المغارة

ينتظر الإشارة

- 2 -

لم يُقبل الفارسُ من دمشق

ولم يُضئْ وجهَ المغنِّي البرق

- 3 -

عانيت موت الروح

في هذه الأرض التي يهدر في جبالها

رعدٌ عقيمٌ وتجوع الريح

- 4 -

كتبتُ فوق الصخر

اسمكِ يا حبيبتي، وفوق موج البحر

فمحت الرياحُ ما كتبت

ولم يَرَ العرّافُ ما رأيت

ولا المغنّي عندما بكيت

أدرك معنى البيتْ

وهو يغني ميتاً للموت

وها أنا في الأسر

أكبت ثانية فوق رخام القبر

- 5 -

ها هو ذا في مغرب النجوم

يحمل جفنتين من تراب قبرِها

على شطآن بحر الروم

تطعن عينيه رماحُ النور

وساحرات العالم السفلي والدهور

يحلم في بعث رماد طائر الخرافة

يروي جذور هذه الصفصافة

بدمه، لعلّها تولد أو تموت

«يونسُ» لن يشق بطنَ الحوت

فالبحر جفَّ منذ أن أبحرت بي

وقلتَ لي لا تكتبي

على رمال الشط ما أقول

- 6 -

يا امرأةً تموت في الولادة

تاركةً وليدها في الأسر

لن تبعثي

فسيّدُ الآلام

طوى جناحيه على جراحه ونام

- 7 -

كتبتُ فوق الصخر

اسمك، يا حبيبتي، وفوق موج البحر

فَمَحَت الرياحُ ما كتبت

وها أنا في الأسر

أكتبه ثانية فوق رخام القبر

- 8 -

الليل في الشطآن

تحملني نجومه على خيول الريح

يا ميتاً يصيح

في قبره، يا رحلة لليل في النهار

متى ستلقين عصا التسيار؟

- 9 -

كتبتُ فوق السور

مرثيتي الأخيرة

فإن مررتِ في غدٍ أيَّتُها الأميرة

بهذه الجزيرة

فلتأخذي وريقةً من هذه الصفصافة

وريشة من طائر الخرافة

وقطرة من نور

إلى صحارى وطني المهجور

لعلّ خيل الفتح، يا أميرتي على ضياء الصُّبْح

تمسح عارَ الجُرْح

- 10 -

ناعورةٌ تبكي على الفرات

أيقظني أنينها على ليلة المعراج

رأيتُني حراً على الأمواج

أمشي وكان في يدي سراج

وزهرة تطفو على المياه

أمام باب اللّه



عين الشمس
أو تحولات محيي الدين بن عربي
في ترجمان الأشواق

- 1 -

أحمل قاسيون

غزالة تعدو وراء القمر الأخضر في الديجور

ووردة أرشف فيها فرس المحبوب

وحملاً يثغو وأبجدية

أنظمه قصيدة فترتمي دمشق في ذراعه قلادة من نور

أحمل قاسيون

تفاحة أقضمها

وصورة أضمها

تحت قميص الصوف

أكلّم العصفور

وبردى المسحور

فكل اسم شارد ووارد أذكره، عنها أكنّي واسمها أعني

وكل دار في الضحى أندبها، فدارها أعني

توَحّدَ الواحد في الكل

والظل في الظل

وولد العالم من بعدي ومن قبلي

- 2 -

كلّمني السيد والعاشق والمملوك

والبرق والسحابة

والقطب والمريد

وصاحب الجلالة

أهدى إليَّ بعد أن كاشفتني غزالة

لكنني أطلقتها تعدو وراء النور في مدائن الأعماق

فاصطادها الأغراب وهي في مراعي الوطن المفقود

فسلخوها قبل أن تذبح أو تموت

وصنعوا من جلدها ربابة ووتراً لعود

وها أنا أشدّه

فتورق الأشجار في الليل

ويبكي عندليبُ الريح

وعاشقات بردى المسحور

والسيد المصلوب فوق السور

- 3 -

تقودني أعمى إلى منفاي عين الشمس

- 4 -

تملّكتني مثلما امتلكها تحت سماء الشرق

وهبتها ووهبتني وردة

ونحن في مملكة الربّ نصلي

في انتظار البرق

لكنها عادت إلى دمشق

مع العصافير ونور الفجر

تاركة مملوكها في النفي

عبداً طروباً آبقاً مُهيئاً للبيع

وميتاً وحيّ

يرسم في دفاتر الماء وفوق الرمل

جبينها الطفل وعينيها وومض البرق عبر الليل

وعالماً يموت أو يولد قبل صيحة الموت أو الميلاد

- 5 -

أيّتها الأرض التي تعفنت فيها لحوم الخيل والنساء

وجثث الأفكار

أيتها السنابل العجفاء

هذا أوان الموت والحصاد

- 6 -

قريبة دمشق

بعيدة دمشق

من يوقف النزيف في ذاكرة المحكوم بالإعدام قبل الشنق؟

ويرتدي عباءة الولي والشهيد؟

ويصطلي مثلي بنار الشوق؟

أيتها المدينة الصبية

أيتها النبية

أَكُتِبَ الفراق والموت علينا، كُتِبَ الترحال

في هذه الأرض التي لا ماء لا عشب بها لا نار

غير لحوم الخيل والنساء

وجثث الأفكار

- 7 -

لا تقترب ممنوع

فهذه الأرض إذا أحببتَ فيها حَكَمَ القانون

عليك بالجنون

- 8 -

عدت إلى دمشق بعد الموت

أحمل قاسيون

أعيده إليها

مقبلاً يديها

فهذه الأرض التي تحدّها السماء والصحراء

والبحر والسماء

طاردني أمواتُها وأغلقوا عليَّ باب القبر

وحاصروا دمشق

وأوغروا عليّ صدر صاحب الجلالة

من بعد أن كاشفني وذبحوا الغزالة

لكنني أفلتُّ من حصارهم وَعُدت

أحمل قاسيون

تفاحةً أقضمها

وصورة أضمها

تحت قميص الصوف

من يوقف النزيف؟

وكل ما نحبه يرحل أو يموت

يا سفن الصمت، ويا دفاتر الماء وقبض الريح

موعدنا ولادةٌ أخرى وعصر قادم جديد

يسقط عن وجهي وعن وجهك فيه الظل والقناع

وتسقط الأسوار



أُولدُ .. وأحترقُ بحبي

تستيقظ «لارا» في ذاكرتي: قطاً تترياً، يتربّص
بي ، يتمطى، يتثاءب، يخدش وجهي المحموم
ويحرمني النوم. أراها في قاع جحيم المدن القطبية
تشنقني بضفائرها وتعلّقني مثل الأرنب فوق
الحائط مشدوداً في خيط دموعي. أصرخ: «لارا»
فتجيب الريح المذعورة: «لارا» أعدو خلف الريح
وخلف قطارات الليل وأسأل عاملة المقهى. لا يدري
أحد. أمضي تحت الثلج وحيداً، أبكي حبي العاثر
في كل مقاهي العالم والحانات.



في لوحات «اللوفر» والأيقوناتْ
في أحزان عيون الملكات
في سحر المعبودات
كانت «لارا» تثوي تحت قناع الموت الذهبي وتحت
شعاع النور الغارق في اللوحات
تدعوني، فأقرِّب وجهي منها، محموماً أبكي
لكن يداً، تمتدُّ ،

فتمسح كل اللوحات،

وتخفي كل الأيقونات

تاركة فوق قناع الموت الذهبي بصيصاً

من نورٍ لنهارٍ مات

«لارا» رحلت

«لارا» انتحرت

قال البوّاب وقالت جارتها، وانخرطت ببكاء حارْ

قالت أخرى:" «لا يدري أحد، حتى الشّيطان»



أرميْ قنبلة تحت قطار الليل المشحون بأوراق خريف

في ذاكرتي، أزحف بين الموتى، أتلمس دربي في

أوحال حقول لم تحرث، أستنجد بالحرس الليلي

لأوقف في ذاكرتي: هذا الحب المفترس الأعمى، هذا

النور الأسود، محموماً أبكي تحت المطر المتساقط

أطلق في الفجر على نفسي النارْ



منفياً في ذاكرتي

محبوساً في الكلمات

أشرد تحت الأمطار

أصرخ: «لارا!»

فتجيب الريحُ المذعورة: «لارا!»

❖ ❖ ❖

في قصر الحمراءْ

في غرفات حريم الملك الشقراوات

أسمع عوداً شرقياً وبكاء غزال

أدنو مبهوراً من هالات الحرف العربي المضفور بآلاف

الأزهار

أسمع آهات:

كانت «لارا» تحت الأقمار السبعة والنور الوهاج

تدعوني، فأقرب وجهي منها، محموماً أبكي، لكنَّ

يداً تمتدّ، فتقذفني في بئر الظلماتْ

تاركة فوق السجادة قيثاري وبصيصاً من نورٍ لنهارٍ ماتْ

❖ ❖ ❖

لم «تترك عنواناً» قال مدير المسرح وهو يمطّ الكلمات

تسقط في غابات البحر الأسود أوراق الأشجار

تنطفئ الأضواء ويرتحل العشاق

وأظل، أنا وحدي، أبحث عنها، محموماً أبكي تحت الأمطار

❖ ❖ ❖

أصرخ: «لارا!» فتجيب الريح المذعورة : «لارا» في
كوخ الصياد



أرسم صورتها فوق الثلج، فيشتعل اللون الأخضر
في عينيها والعسلي الداكن، يدنو فمها الكرزي
الدافئ من وجهي، تلتحم الأيدي بعناق أبدي
لكن يداً تمتدُّ، فتمسح صورتها، تاركة فوق
اللون المقتول بصيصاً من نور لنهارٍ ماتْ



شمس حياتي غابت، لا يدري أحد. الحب وجود أعمى
ووحيد. ما من أحد يعرف في هذا المنفى أحداً، الكل
وحيدٌ، قلب العالم من حجر في هذا المنفى - الملكوتْ

❖ ❖ ❖

هنادي

(1)

تعبر النهر «هنادي» مرتين

طفلة في المرة الأولى

وأنثى نجمة

في الثانية

في العلا عراقية كانت

وفي «تدمر» كانت ملكة

وجهها يحمل أسرار الينابيع

التي لم تكتشف بعدُ

وضوء الأزمنة

ربما كانت لبودلير وديك

الجن

في ميلادها الأول

نار القافية

في العلا معبودة كانت

وفي أبراجها السبعة كانت ساحرة

(2)

عندليب برتقالي

وأرض من ذهبْ

«بردى» يرسم فيها

ما يغني العندليبْ

(3)

نجمة في قبة الليل تضيء الكلماتْ

تستمدُ الكائناتْ

قُوّتَها الروحي منه

وتُبَقِّي وجع الشاعر

ناراً في العراءْ

(4)

إنها معجزة الشعر وموسيقا

الينابيع الخفية

تلتقي في لعبة الضوء

وفي عينيْ صبية

فلماذا لا تبوح الكلماتْ

بالذي خبّأه الشاعرْ

في باطنها؟

صوت «هنادي»

أم صداح العندليب؟

❖ ❖ ❖

وصف عمر الخيّام

قصائد من قبل أن يُبصر الـــ

ـــنور ويهذي في ذرا الخلق

رأى سناها ﴿ مواجيده

وفي جنون الخمر والعشق

وفي غبار الكون، في بدئه

وفي بياض الثلج والبرق

مكنوزة في الأرض حتى انبرى

يخرجها من باطن الأرض

وردة «نيسابور» هذي التي

تفوح في بستانها الفضي؟

أم عمر الخيام في قبره

يمعن في الرحيل والرفض؟

كان يرانا وهو مسترسل

في ذكريات الموت والسحر

في مدن الشرق احترقنا، كما

تحترق العنقاء في الفجر

النار والرماد ميراثنا

ووردة تنبت في القبر

في وجهه حديقة لا تُرى

وعنفوان الرجل الطفل



التروبادور

«تروبادور» الأندلس الضائع

يبكون «المادونا»

قال الأول منهم:

أنت حفيد «الدون كاميليو»

أم أنت حفيد «المنصور» ؟!

قال الثاني:

المادونا سألتني عنك

فقلت لها: إنك في «العدوةِ»

تنتظر الإبحار

قال الثالث:

هل سقطت غرناطةُ

أم ما زالت تتلألأ كالنجمة؟

فالمادونا تلد الآن

حفيداً آخر تحت قباب النور

وتحت نحيب النافورة في قصر الحمراء

سيعيد كتابة «لا غالب إلاَّ اللّٰه»

في مدن أخرى

لم يضربها الزلزال

قال الرابع: نحن بذور النار

نبدع في المنفى

أندلساً

فلماذا ليل نهار

تبكي القيثارات؟



المستحيل

يأتي مع الفجر ولا يأتي

حبّي الذي أغرق في الصمت

يحوم حول السور مستجدياً

تنهشه مخالب الموتِ

حتى إذا ما اليأس أودى به

صاح من الأعماق: يا أنتِ

سفينةُ الأقدار لم تنتظرْ

وسندبادُ الريح لم يأتِ

من أين أقبلتِ؟ وآبارنا

مسمومةٌ من أين أقبلتِ

لعلّني كنتُ على موعدٍ

من قبل أن أُولد، أو كنتِ

الحبّ أعمى، وأنا هاهنا

أكتب فوق الماءِ ما قُلْتِ

ربيعنا أقبلَ من رحلة الـ...

... ضياع والأحزان والمقتِ

تسبحُ بالنور فراشاتُه

فلتفتحي الأبواب يا أختِ

❖ ❖ ❖

حبيبتي من قبل أن تُولدي

أحببتُ عينيك:

فَمَنْ أنتِ؟



فسيفساء

مهرّج السلطانْ

كان ويا ما كان

في سالف الأزمان

يداعب الأوتار، يمشي فوق حدّ السيف والدخان

يرقص فوق الحبل، يأكل الزجاج، ينثني مغنياً سكرانْ

يُقلِّد السعدان

يركب فوق ظهره الأطفال في البستان

يُخرج للشمس - إذا مدَّت إليه يدها، اللسان

يُكلم النجوم والأمواتْ

ينام في الساحات

كان يحبّ ابنة السلطان

يحيا على ضفاف نهر صوتها

وصمتها

لكنها ماتت - كما الفراشة البيضاء في الحقول

تموتُ في الأفول

فجُنَّ بعد موتها

ولاذ بالصمت وما سبّح إلاّ باسمها

وذات يوم جاءني

يسألني

عن الذي يموت في الطفولة

عن الذي يولد في الكهولة

رويتُ ما رأيتْ

رأيت ما رميت

كان ويا ما كان

❖ ❖ ❖

الحصار

إلى خليل حاوي في ذكراه

محجوزةٌ كل منافي الأرض والسجون

أقبية التعذيب والجنون

أقنعة المهرجين

وقناني الخمر والسموم

مطاعم المدينة، الملاعق، الصحون

قصائد التفعيلة/ العمود

محاكم التفتيش

تذاكر المسارح/ الملاجئ/ القبور

كينونة الحبِّ/قباب النور

أضرحة الملوك

عواصم الخيانة /اللاهوت

فأين يمضي شاعرٌ

نجا من الموتِ

لكي يموتْ

من ديوان البيّاتي الأخير

نـصوص شرقيـة

- 1 -

الأحمر والأسود

لصان اختبأا

في أكواخ الطين،

وفي قصب الأنهار

أنهكني هذا الزمن الدائر

في أجراس

من يروي جسدي

لأطوف به حول الكعبة

أدفنه في جبل «التوباد»

فلعلّ نسور الفجر الدامي

تأكله

وتبقى بعض عظامي

طلسماً لطفولة أعمى

ضع في باب اللّه

سحر الألوان

في ليل «معرة» أجدادي

ولدتني أمي أعمى

كنت أرى من بين أصابعها

سفناً ترحل نحو كواكب أخرى

ولصوصاً يحكم بعض منهم بغداد

وممالك أخرى

ماتت قبل ولادتها

كنت أرى أمي شاحبة

في الفجر تصلّي

وتنادي أشباح الموتى في غرف الدار

من يدفن بعض عظامي

لأراها تخضرّ وتنمو

في طين الأنهار

لأصنع منها مزماراً

ينفخ فيه الرعيان

- 2 -

في حفرة موتي

في وحشة بيتي

كان النمل يروح ويغدو

مثل بناة الأهرامات

ليجمع من كسر الخبز طعاماً

لشتاء قاس

أعلام ليالي وحشته اقتربت

يتهامس في لغة أعرفها

في بيت الأموات

الأسود والأحمر لصان

سرقا مني «الغفران»

من ألقى حجراً في ماء لبكائي؟

من أيقظ هذا الوحش الإنساني

من صحراء الربع الخالي

حتى «تدمر»

أجدادي تركو خيط دم

واكتشفوا البعد الخامس للموت

وروح الليل

وحزن الناقة حين تجف الغدران

وأنا في قاع جحيمي

أكتشف الآن

صهيل حصان الأسطورة،

في شعر المتنبي

ورماد مواقد أجدادي في حوران

وأعاني في نهر مجرة كونيّ

أرق الأكوان

قانون أزلي أم ماذا ؟

متى في كل مكان

وقبور يتصاعد منها الهذيان

من يشعل ناراً

في هذا الليل الموحش؟

من يصرخ في غرف الدار؟

فلتطلقني يا أبتي من قفصي

فسجوني كثرت

وعذابي طال

- 3 -

في الفردوس الأرضي/ جحيم الفقراء المنبوذين

لصوص

سرقوا سور الصين وبحر الروم

سرقوا الفرح الإنساني

ونايات الريح

وباعوا للفقراء صكوك الغفران

وأوراق التوت

لصٌّ منهم،

بعمامة نواح بكاء

أوقفني في حفرة موتي

هددني بالطرد من الفردوس

وقال: بنار الفجر الدامي

وضياعي في هذا الكوكب

ما بين الوردة والسكين

روحي قطرة ضوء تخبو

وأنا أخبو معها

سنموت كلانا في هذا المنفى الملعون

فلماذا يا أبتي

أنجبت حصاناً غجرياً أعمى

لا يعرف في هذا الصقيع الشاسع

أن يموت؟

دمشق

1999/2/20م



صورة على غلاف

كان على جواده، بسيفه البتار

يمزق الكفّار

وكانت القلاع

تنهار تحت ضربات العُزّل الجياع

- مولايَ: لا غالب إلاّ الله

فلتغسل السحابة

أدران هذي الأرض، هذي الغابة

ولينهض الموتى من القبور

ولتحرق الصاعقةُ الجسور

والجثث المنفوخة البطون

فحَول رأس القيصر، النسور

تحوم، والأمطار

تغسل جرحكَ الدفينَ، تغسل الأشجار

- مولايَ: لا غالب إلاّ الله

فآه ثم آه

مملكة الموت على أسوارها الحُرّاس

يرتِّقُ النعاس

عيونهم، فلتُفتح البوابة

وليدخل الغالب والمغلوب

فالفجر في الدروب

عما قريب، يوقظ الحراس

ويقرع الأجراس

- مولاي! قال النجمُ لي، وقالت الأقدار

بأننا ممثلون فاشلون فوق هذا المسرح المنهارْ

وأن هذي النار

الشاهد الوحيد في محكمة الزمان

تَصَدَّع الإيوان

واحترقت أوراقنا الخضراء في الحديقة المعطار

والعندليب طار

- مولايَ: لا غالب إلاَّ الله

فآه ثم آه



المرتزقةْ

الشعارات التي تكنسها الريحُ

على أرصفة الليل

وأضواء الحوانيت

وشارات المرور

ومقاهي العالم السفليِّ

والأفيون والجنس وحفارو القبور

وأغاني «أم كلثوم»

ووعاظ السلاطين

ومدّاحو الملوك

ذكّر بالطواويس التي باضت

على الأوتاد

في أعراس «هارون الرشيد»

وبعار الشرق منبوذاً

يغنّي عربات الفاتحين

وبأحزان الجواري والعبيد

وبوحه «البحتري» الجاحظ العينين

في أعقاب دينار

وفي أعتاب سلطان جديد

آه من صمت القواميس المريب

ومقامات «الحريري»

على هامش مخطوط قديم

ذكَّرني بكلاب الزمهرير

تنبح الموتى

بصحراء الجليد

وشمس العالم السوداء «كافوراً»

وخصيان المماليك

وضحكات «جرير»

مَنْ يدلُّ العاشقَ الأعمى

على زهرة بستان

على نبعٍ

على حانة خمّارٍ جديد؟

وعلى عائشةٍ بين الجواري والعبيد

وعلى ألفاظ قاموس بها أصنع

محراثاً وسيفاً وربيع

وبساط الريح من هذا الصقيع؟

ويغنّي عربات الموت والنفي

مَنْ يدلُّ العاشق الأعمى

على أسوار «نيسابور»

في هذا الجحيم

وعلى ذئب جريح

يلعقُ الجرح

ويعوي عبر صحراء الجليد

آه من عصر المماليك الجديد

ومن الصمت

ومن بوقات أشباه الرجال الميتين

ومن كهوف العالم السفليِّ

من أرض الخطايا عائدين

رمماً تزني

على أرصفة الليل

تغنّي عربات الفاتحين

من يدل العاشق الأعمى على ساحرةٍ

«عشتارُ» ماتت في الأساطير

وماتت «ياسمين»

آه من محترف يقتل باسمي الآخرين

وعلى الأعتاب يصطاد حمامات القتيل

قاتلاً يشحذ آلات الطواغيت أجير

يرتدي عار المخانيث

ويستجدي على باب أمير

رافعاً كل الشعارات التي تكنسها الريحُ

على أرصفة الليل الضرير

مَنْ يدل العاشق الأعمى على أسوار «نيسابور»؟

يبكي فجرها النائي البعيد

بين آلات الطواغيت

وضحكات «جرير»

ومناحات الجواري والعبيد

جفّت الآبار في الدرب إليها والدموع

وخبت في قدح الخمر

وفي أيدي المغنين الشموع

من يدل العاشق الأعمى

على خمَّار حان النور في كل العصور

وعلى جثّة بحّار غريق

يتبع الشمس إلى المنفى

ويستلقي على الشاطئ عشباً وحريق

آه من عصر المماليك الجديد

ومن الصمت

ومن بوقات أشباه الرجال الميتين

❖ ❖ ❖

الشهداء لن يموتوا

لن يموت الشهداء

فَهُمُ البذرة والزهرة في أرض الفداء

وهم الساحل والبحر وشعر الشعراء

كلَّما خيَّم ليلٌ

فجرت بغداد في محنتها نهر ضياء

كلما طلَّ دمٌ

أينع بستانٌ وثار الفقراء

وطن حر وشعب صامد في كبرياء

لم يَلِنْ في قبضة الجلاد

أو أيدي الوحوش الجبناء

علَّم الفاشست في تاريخه

كيف يموتون ويمضون هباء

العصابات التي تطفو على السطح فقاعات هواء

ستولّي مثلما جاءت

ويبقى الكادحون الأمناء

يزرعون الأرض بالورد ويبنون منارات هناء

❖ ❖ ❖

الطفولة

ولدتُ في جحيم نيسابور

قتلتُ نفسي مرتين، ضاع مني الخيط والعصفور

بثمن الخبز، اشتريت زنبقاً

بثمن الدواء

صنعت تاجاً منه للمدينة الفاضلة البعيدة

لأمِّنا الأرض التي تولد كل لحظة جديدة

نمت على الأرصفة الغبراء

اصطدتُ الفراشات، وقعتُ في شرك النور

وسحب الخريف والغابات والزهور

وكلّمت نجمة الصباح، قلت: يا صديقة

أتزهر الحديقة؟

وتولد الحقيقة؟

من هذه الأكذوبة البلقاء

طفولتي الشقية الحمقاء

فراشة عمياء

- البشر القانون في مدينة الحديد والأحجار

تسلَّقوا الأسوار

ونصبوا الشراك

قالت، ومدّت يدها: أهواك

وابتسم الملاك

وغاب في الجدار

- يا عندليب العاشق الأعمى، ويا خزائن الأسرار

أبحرت السفينة

تبحث في الأصقاع عن مدينة

لم يقف الشحاذ في أبوابها يوماً

ولم يُسند على رصيفها جبينه

لكنما السفينة

عادت مع المساء للمدينة

تحمل فوق ظهرها الشحاذ

مقوّس الظهر، بلا عيون

الجثث المبقورة البطون

تسدّ هذا الشارع الملعون

متى؟ متى أيتها الشمطاء؟

ستمطر السماء!

وتولد الحقيقة؟

من هذه المدينة الغريقة!



الليل فوق نيسابور

كل الغزاة، من هنا، مرّوا بنيسابور

العربات الفارغة

وسارقو الأطفال والقبور

وبائعو خواتيم النحاس

وقارعو الأجراس

كل الغزاة بصقوا في وجهها المجدور

وضاجعوها، وهي في المخاض

حياتنا فيها، وفي داخل هذا النفق المسدود

رواية مُملةٌ مثّلها أحمقُ أو مجنون!

- أيتها الأنقاض!..

دقّت طبول الموت في الساحات

وأُعدم الأسرى وهم أموات

- لسانها الثرثار

يقطع فيه خشب التابوتْ

خيوط عنكبوت

تلتفُّ حول هذه الذبابة

أيّتها السحابة!

لتغسلي ذوائب المدينة الثرثارة

وهذه القذارة

كل الغزاة، من ظهور الصافنات وعلى أجنحة الطيور

البشر الفانون

يحطِّمون بيضة النسر، ويُولدون

من زبد البحر ومن قرارة الأمواج

من وجع الأرض ومن تكسُّر الزجاج

أقدام جرذان على السجاد

مرَّت، ونار مضت من خلل الرماد

- ليقرأ الكتاب بالمقلوب

مُنَقِّبين في حواشيه عن الكتاب المحجوب

كان علينا أن نضيء النور

في ليل نيسابور



هكذا قال زرادشت

يغرق العالم في الصمت ويرتدّ جواد الريح منهوكاً على

أبواب ليل القادمين

ويناديك مغنّيها وكهّان حضارات الغزاة الفاتحين

والمحبّون وأبناء السبيل

هذه الليلة مرّت، عدماً، صفراً

وها أنت طريد

حاملاً ناري إلى عصر جديد

رافضاً كل الشعارات ومصلوباً على بوابة الرفض

وملعوناً وحيد

تقتفي خطوك من منفى إلى منفى عيون المخبرين

فمتى يهبط «زارا» ويناديك كما ناداه أطفال المجوس

هذه الليلة مرّت

سحقتها قدم الصمت وأبليت ثديها العاري الطقوس

خلّفتها طفلةً حبلى وأماً زانية

لجنود الطاغية

هذه الليلة أُنثى حيوان ضاجعت أخرى وماتت عارية

دقت الساعات فيها ناعية

موت كلب الطاغية

فمتى يهبط «زارا» من جبال النوم والموت إلى الشارع حراً وطليق

صارخاً كالطفل في دوّامة الخَلْق وإعصار الحريق

مُمسكاً في يده خيط الدم الجاري وأقمار حضارات الجليد

حاملاً ناري إلى عصر جديد

ومراعي وطني النائي الحزين

ومكاتيبي التي بلّلها الدمعُ وصيحات طيور البحر في المنفى

وذكرى «ياسمين»

ومتى يهبط «زارا» من رفوف الكتب الصفر ليعرى ويجوع

في صحارى مدن الحب التي تنتظر الطوفان والفتح ونار المبدعين

مظلماً كان شبابي، قال لي، ما قال للنسر «لبيد»

ليلهم يأتي وها أنت طريد

تشعل النيران، هذا زمن فيه يموت المؤمنون

في المتاريس وفي الحانات والصمت وأعماق السجون

هذه الليلة مرت وعلى الأرض ضياء كان في الفجر يخون

لم يمت فيها سوى فأر مريض

يا مواء القطط العمياء، يا باعة موت الآخرين

لم يعد «زارا» من الحج ولم يهبط إلى الشارع في الفجر الحزين

فمتى يشتعل الإنسان في الثورة والحب وفي دوّامة الخَلْق

وإعصار الحريق



كتابة على قبر السيّاب

أصعد أسوارك، بغداد، وأهوي ميتاً في الليل

أمدّ للبيوت عيني وأشمُّ زهرة المابين

أبكي على الحسين

وسوف أبكيه إلى أن يجمع الله الشتيتين

وأن يسقط سور البين

ونلتقي طفلين

نبدأ حيث تبدأ الأشياء

نسقي الفراشات العطاش الماء

نصنع من أوراق كراساتنا حرائقْ

نهرب للحدائق

نكتب أشعار المحبين على الجدار

نرسم غزلاناً وحوريات

تحت ضياء قمر العراق

نصيح تحت «الطاق(*)»

بغداد! يا بغداد يا بغداد

جئناك من منازل الطين ومن مقابر الرماد

---

* الطاق: هو إيوان كسرى الواقع بالقرب من بغداد، وقد كنا نذهب إليه - ونحن صغار - صائحين تحته فيردّد صدى ما كنّا نقوله. (عبد الوهاب البياتي)

نهدم أسوارك بعد الموت

نقتل هذا الليل

بصرخات حبنا المصلوب تحت الشمس



إلى هند

عيناكِ «مدريد» التي استعدتها

عيناكِ «قندهار»

بحيرتان عبر غابات النخيل وسهوب النار

غرقتُ فيهما، احترقتُ

دَمّرَ الإعصار جزيرتين وأَغْرَقَ التيار

ضوء القناديل الخريفيّة

في قصر جنيّة

عاشت على انتظار أغنية

وفارسٍ مُلثّم يأتي مع الرياح الشماليّة

يدق في قيثارة الأبواب

يُلقي سؤالَهُ ولا ينتظر الجواب

ماذا على الماء كتبت أيها الإنسان؟

وما هو الشيءُ الذي يعيش إنْ كرهتُهُ؟

يموتُ إن أحببتُهُ ويغمر العالم بالضباب؟

عيناك «أصفهان»

أوى إلى أبراجها الحمام

وبُعث الخيّام

بعندليب فمه الظمآن

مُوَزّعاً ألحانه في الحان

ومُترعاً قبّرة هذا الليل بالمُدام

عيناكِ «بغدادُ» التي افتقدُتها في الصحو والأحلام

لو كنتُ هارونَ الرشيدَ لتنزهتُ بها

مُوَزِّعاً على الجموع طَيِّب الكلام

لكنني لستُ الخليفةُ الشهير، أو مغني عصره الهمّام

ولست بالخيّام

وإنني بالرغم من فقري بهذا الزمن البخيل

وليل حزني المجدِب الطويل

بكيت، يا حبيبتي، كثير

منحت أهلي الفقراء كلماتي

وتمزقتُ على الأشواق في الهجير



العاشقة

- 1 -

كانت تصغي بجوارحها وبعينيها للموسيقا الوثنية

للنهر المتنهد في غابات جبال الأطلس

للمدن الأسطورية

للساعات الضائعة الجوفاء

لثمار الليل الذهبية فوق سرير الأمطار

كانت في أحضان الزوج النائم عذراء

تلعب بالقمر الحافي فوق رؤوس الأشجار

تتبع موت فراشات ربيع مات على طاولة المقهى

وتمد يديها ضارعة

فالموعد فات

والليل على شرفات البحر يسترخي محموم النظرات

- 2 -

بيروت اغتصبت في هذي الليلة في الحانات

- 3 -

كانت تصغي لكن العاشق مات

في المقهى منتظراً سيدة الأقمار السبعة

في موسيقا «باخ»

وقصائد «إيلوار»

في الأسبوع الرابع من كانون الأول في أعياد الميلاد

كانت تتمنى لو مات العالم

لو زحفت ، كالكلبة تحت الأمطار

لو ضربت بسياط من نار

لو حُملت قرباً للبحر المستلقي تحت الشرفات

لكن الموعد فات

- 4 -

كانت تفصلها عني

سنواتٌ من سفرٍ - أجيالٌ

أنهارٌ - قارات

كتبٌ

مدنٌ

أسوار

لكنني كنتُ أراقبها من ثقب الباب

❖ ❖ ❖

تأملات في الوجه الآخر للحبّ

- 1 -

لا أكتب شعراً من ذاكرتي أو ذاكرة الموروث المحبط، لكني
في حرب عصابات الشعر على الأعراف المحشوَّة قشاً
والموت المجَّاني، وراء المتراس دماً أنزف، مسكوناً بقوى
الثورة والكون المتغير، أصنع ذاكرة لوجود الإنسان الغائب
والحاضر. روحي مركبة ترحل نحو الداخل والخارج باحثة
عن جوهر هذا الحبّ الثابت والمتحوِّل في قاع الإبداع
التاريخيِّ وفي بهو مرايا القرن العشرين.
لغتي تخرج من معطف أبطال البشر الفانينْ
تسكنها صيحات سكارى ومجانين
ولدوا من أوجاع العصر الذريِّ وطوفان حروب التحرير
جُنُّوا في أقبية التعذيب
ماتوا في حرب الطبقات الشعبية مجهولين
حلَّت فيهم روح الشهداء القديسين
في بهو مرايا القرن العشرين
تتسكع حاملة قنبلة بيد وبأخرى أوراق الريح
تخطف جلاداً أو ملكاً ديناصور
تعدمه باسم قوانين حروب التحرير

تُسقط أزمنة شاخت وتقيم على أنقاض الأزمان جسور

اللغة الفعل النار النور

تعلن ميلاد الإنسان الشاعر في كوكبنا المهجور

- 2 -

فليستيقظ صنّاع الكلمات

ومغنو الثورات

- 3 -

الثورة شعر والشاعر إرهابي ضد اللامعنى واللامعقول

- 4 -

قانون جدليٌّ يتحكم بالكلمات، فيفرغها من معناها أو يملؤها ويجسّد فيها طاقات لا حصر لها، يبح من فرط غناها هو إياها، يتحكم بالإنسان الشاعر، بالأرض المجنونة وهي تدور

- 5 -

الشاعر إرهابيٌّ ضاق به التعبير

يسكن عقل الثورة، مسكوناً بقوى التغيير

وبآلات التدمير

- 6 -

يسقط أحياناً في فخ خديعة أهواء الليل ويصبح بوقاً أو طبلاً أجوف في ركب السلطان

- 7 -

سيدتي، لم تؤمن، حتى الآن بأن الأرض تدور

وبأنا ذرات لا تفنى، سابحة في النور

نتعانق تحت نجوم الليل وفي ضوء الشمس نموت

نترك ما تتركه الثورات المغدورة من نار وبذور

في رحم الأرض المحروث

- 8 -

أُطلق، من خلف المتراس عليك النار

يا طاووس المجتمع المتسلق، يا قاذورة عار

- 9 -

أنسف ذاكرة الإنسان العربيِّ المستلب المأخوذ

أنسف ذاكرة العبد المملوك

والموروث المحبط والملك الصعلوك

أنسف ذاكرة الشعراء المأجورين وذاكرة القراء المخدوعينْ

أنسف ذاكرة الثوّار المرتدين

والعملاء المذعورين

- 10 -

الشاعر إرهابي ضد الإرهاب

يخرج من معطف ثوّار التاريخ ويخرج من معطفه الثوّار

- 11 -

أرمي قنبلة في قاعات لصوص الشعر وأحشو أفواه جواري

السلطان رماداً، أنزف خلف المتراس دماً، أتوقف بين

كنوزي وشباب الأرض الخالد محروماً ، فاستيقظ يا ألم
الحبّ، مددتُ إليك يداً أستعطي فملأت دياجيري بالبرق
الخاطف. لن يغشاني بعد اليوم نعاس أو نوم أو ينزع عني
أحد هذا الإكليل الشوكي صليبي وأنا : فوق لصوص
الشعراء المأجورين وفوق شعارات المرتدين. صعوداً! يا ألم
الحب مددت إليك يداً ، أستعطي ، فملأت سلالي بثمار
الليل الذهبية ، ها أنا ذا أجثو تحت سماء الوطن العربي المنهوب
أرمي قنبلة
فالشاعر إرهابي مجنون يسكن عقل الثورة ، مسكوناً بقوى التغيير.

- 12 -

العالم ساحة إرهاب للشعر ، ومنزل حب للشاعر في القرن العشرين

❖❖❖

قالوا عنه..

إنَّ البيّاتي في بعض من أشعاره قد يكون بين أروع من كتبوا شعراً بالعربية... من حيث موضوعاته الشعرية: إنها تتعرض للقضايا الاجتماعية، وبالرغم من ذلك تظلّ بلورته الجمالية واضحة. وعندما يتعرض إلى الطبيعة، يلبسها ثوباً قشيباً مؤثراً.

وعندما ينظم البياتي شعراً كلاسيكياً، هو ذروة الشعر، وقد لا أفضل عليه أحداً.

الشاعر سعيد عقل

وقصيدة الشاعر عبد الوهاب البيّاتي «بكائية إلى شمس حزيران» تمثل صورة فضلى من صور الشعر القومي المرتبط بمرحلة حزيران، والمعبر عن واقع فاسد، لم تكن مرحلة حزيران سوى أبرز نتائجه المرثية المعلنة.

إن فضح الشرط الإنساني للأمة العربية بسلاح التحليل المنطقي وأداة التصوير الشعري، هو المهمة الأكثر إلحاحاً والأشد تأكيداً من كل المضامين المقترحة على الواقع والمحمولة عليه.

ولقد ساهم البيّاتي بقصيدته هذه في شق دربٍ لما يجب أن تكون عليه البلاغة العربية في مرحلة ما بعد حزيران. وبذلك زاد من مكانته كشاعر في مقدمة شعراء الطليعة العربية منذ أكثر من عشرين عاماً.

الناقد محيي الدين صبحي

في كتابه «كتاب المراثي» كان يتقطر شعراً شفيفاً يناوش الموت ويسميه بأحلى أسمائه، حيث يرثي فيه البيّاتي أكثر من اسم ومعنى تاركاً للآخرين مهمة رثائه، والذي حلَّ في العام 1999 على رصيف المنفى. الحقيقي هذه المرّة، خاصة أن النص يأخذ بعداً جديداً حين يموت المؤلف.

الناقدة: سعدية مقرح

وعودة البيّاتي إلى النهج السريالي، لا يعني أبداً تخلّيه عن المضمون النضالي الذي عهدناه في شعره.

الأديب الدكتور علي سعد

إن البيّاتي شاعر رقيق يمضّه ويسعده ألم كبير، وهو إنسان كبير القلب تحزنه وتضيء أيامه قضية مجيدة... قضية واحدة يراها دائماً أينما ألقى بصره وحيثما توجه بجسمه أو فكره.

وهو أيضاً إنسان معذب في المنفى... من أجل فكره وعقائده هذه المتجهات كلها تتجمع، وتصب في شعر البيّاتي ، تياراً متصلاً من الألم الهادئ الخلاّق، لا يفجر في نفسه السخط على أعدائه، قدر ما يلهمها حبّ الناس، والعطف على المشردين والانتصار للقضايا الكبرى، والرغبة الملحة في تبيُّن الشمس وتوقُّعها ، وراء كل اربادة للجو ، أو تجهُّم للأحداث.

❖الناقد الدكتور علي الراعي

ويغرم البيّاتي بالتكرار، إنه يكرر أبياتاً بكاملها أو مقاطع بكاملها، ليحدث إيقاعاً معيناً هادفاً إلى التأكيد على شيء معين بالذات، ليحدث في النفس هزَّة ودفعة إلى الأمام، ويعمق الإيقاع أكثر عندما يستخدم التلميح والكلمات الموجهة بدل التصريح والكلمات المباشرة.

❖الأديب مجاهد عبد المنعم مجاهد

وعبد الوهاب البيّاتي هو أحد الذين شرّدهم نوري السعيد... لقيته في بيروت، إنساناً كبير القلب، تنبض كل خفقة منه بحب الإنسان... بحب الوطن... بحب العرب.

❖الأديب عبد الرحمن الشرقاوي

لقد جنح الشاعر في أشعاره الأخيرة، إلى التماس أكبر قدر من الوضوح رغم استعماله العبارات الشعرية المبتكرة، إذْ توخَّى فيها السلاسة والبساطة، فخرجت وكأنها صيحة من القلب.

❖الناقد إحسان سركيس

وللبياتي – ككل شعراء النضالية – مناخ شعري يهمي عليه ألف حاسة وحاسة، ويذوب في مقلتيه ألف لون ولون، ولكنه مثلهم يرفض كل تخثُّر اجتماعي. وهذا هو بالذات ما يحمله على ترجيح قضايا الإنسان الكبرى.

❖الناقد أحمد سويد



خلاصة عامة

عبد الوهاب البيّاتي شاعر المنافي الطوعية والقسرية معاً، الذي حمل غربته السحيقة وعذاباته السرية معه إلى دول شتّى من هذا العالم في الشرق والغرب، هو من الشعراء العرب المعاصرين القلائل، بل الرائد، الذي يتصف شعره بامتياز وبصورة عامة، بالعمق الفلسفي التأملي، وبخلاصة تجارب وتصوّرات المتصوفين الكبار أمثال: غيلان الدمشقي، والحلاّج، والسهروردي، وابن عربي، وجلال الدين الرومي، وعمر الخيّام في وجهه الحقيقي، وليس بوجهه المزيف الذي يتداوله الكثير من الناس عنه، دون أن يعوا حقيقته كفيلسوف وعالم رياضيات.

أما الكثير من موضوعاته الشعرية، كما رأينا من خلال المختارات التي وردت في هذا الكتاب، فهي تتطرق لقضايا الحرية، ونضالات الشعوب عبر العصور، من خلال الثورات الشعبية الواعية، ضد الظلم والطغيان والتسلط. لهذا السبب نستطيع القول - وباطمئنان شديد -: إن شعره في خصوصيته التاريخية والاجتماعية، ساهم في توعية الجماهير و«تثويرها» من أجل خدمة القضايا الوطنية والتحررية الكبرى.

إذن البيّاتي شارك بضراوة عن طريق الكلمة الملتزمة المقاتلة، في هدم أسوار الخوف الغريزي، وإزاحة القديم السلبي المتوارث الذي لا فائدة منه، داعياً إلى بزوغ شموس الشعوب المكافحة الحرة، التي تصرّ على تحقيق الرفاه والعدالة والحياة النظيفة للناس كافة:

ليرى العالم شعبي

صامداً في وجه أعداء الحياة

رائعاً كالأغنيات

حاملاً كالأرض في أحشائه بذرة خصب

مثقلاً بالورد والأثمار في ليلة حب

وتجدر الإشارة هنا... إلى أنَّ البيّاتي قد أدخل **النهج السريالي** - في خطوة جريئة - على الشعر العربي في مرحلة الستينيات، في علاقة تناظرية إلى حدّ التماهي، وفي مرحلة السبعينيات دمجه برمزية صوفية غارقة (بوحدة الوجود) واستمرار الزمن السرمدي، مستلهمة من نهج سلطان العارفين والعاشقين ابن عربي. يقول في قصيدته مخاطباً الشاعر صلاح جاهين:

ألف رؤيا عبرتْ

في جوع صحرائك خبز الآخرين

ذهب الموتى وعادَ الميِّتون

لا تُجرِّح وجنة الحرف الحزين

إنها الشمس ، وها أنت مع الشمس وحيدٌ

في سهوب الآخرين

لا تدقّ الباب، فالحرف ضنين

آه لا تنزع قناع الفارس الميّتِ

ها أنت مع الشمس وحيدٌ

في سهوب الآخرين

ويغيب الغزل بالمرأة الحبيبة عن شعره؛ لأن حياته اليومية في المنافي، لم تترك له فرصة صافية للوقوف أمام قضية الحب، بل نجد أن عاطفته قد تحوّلت من حبّ الأنثى، إلى حب الأم والأطفال والوطن والإنسان:

حبيبتي... جميع

رفاقنا ماتوا

ولم يبق سوى الزمان

وحسرة الأغان

حتى صديقي

أحمد الصغير

مات عليه رحمة الله، صديقي

أحمد الصغير

ماذا تقولين إذا عدنا إلى الوطن

ولم نجد هناك من يعرفنا

ماذا تقولين؟

أيا عصفورة الشجن!

ولعلَّ ما يقوله الناقد الكبير الدكتور إحسان عباس، حول مزايا وسمات

الشعر العربي المعاصر، ينطبق تماماً على معظم شعر عبد الوهاب البيّاتي:

1 - الحزن العام الهادئ، المتطور، عن الحزن الرومانتيكي القديم.

2 - الإحساس بالغربة والضياع والنفي.

3 - اتحاد الشاعر بالرموز.

4- اتحاد الصوفي والشهيد في التراث.

5 - اتحاد الشاعر والشهيد المقاتل على نحو مجازي.

6- الحيلولة الكونية ومعانقة الشاعر للكون، أو اتحاد الشاعر والتماهي مع الأرض والحبيبة.

7 - خلط المحسوبيات معاً، والمزج بين المحسوس والمتخيل.

ولعلَّ هذا المقطع الشعري المستمدّ من قصيدة (الموت في غرناطة)، يثبت صحة ما أوردناه، مع التنويه بأنه لا يحمل كل مزايا الشعر التي حددها الناقد إحسان عباس، بل يحمل العديد من مزاياه الجوهرية:

عائشةٌ تشقُّ بطن الحوت

ترفع في الموج يديها

تفتح التابوت

تُزيح عن جانبها النقاب

تجتاز ألف باب

تنهض بعد الموت

عائدةً للبيت

ها أنذا أسمعها تقول لي: لبَّيك

جاريةً أعود من مملكتي إليك

وعندما قبَّلتها بكيت

شعرت بالهزيمة

أمام هذي الزهرة اليتيمة

وضمن هذا المنحى... نضيف... أنَّ البيّاتي في دواوينه الأخيرة، اتجه إلى نظم الشعر المكثف الذي يعبّر بأقل الكمات عن أوسع المعاني: (البلاغة بالإيجاز).

في هذه المقطوعة التي تتألف من أربعة أسطر، يقول الشاعر صاحب الرؤيا في وصف واقع وطنه وأمته المليئة بالطواويس - على حد تعبير الناقد ميشيل خليل جحا - الذين أوصلوها إلى الهزيمة والدمار، ورغم ذلك يحتفلون بالنصر ويعِدون شعبهم باليُمْن والهناء والعزة والرخاء الوفير، وهي لولاهم.. ولولا حماقاتهم لكانت في ألف خير دون أدنى إزعاجات أو أخطار...!

وخير مثال على ذلك قصيدته الشهيرة (الطاووس)، والطاووس ما هو سوى رمز الطاغية المهووس:

مدنٌ بالطاعون تموت وأُخرى يضربها الزلزال

ومجاعات وحروب في كل مكان ودمار

وحضارات وعصور تنهار

لكنَّ الطاووس، بلا خجلٍ، يُظهر عورته للناس.

خلاصة القول:

إنَّ عبد الوهاب البيّاتي ، سيبقى أحد أبرز الشعراء العرب الكبار المعاصرين، وأكثرهم استخداماً للقناع المستعار، من التاريخ والرمز والأسطورة الإغريقية والشرقية، لكي يعبِّر من خلاله عن المعاناة الإنسانية، ومصير البشرية، لذلك أضحتْ عنده (عائشة) هي الرمز والقناع لروح العالم المتجدد من خلال الموت. شأنها في ذلك، شأن طرفة بن العبد، وديك الجن، والمعري، وفريد الدين العطار، ولوركا ، وغيفارا.

المصادر والمراجع

1- ديوان عبد الوهاب البياتي (الأعمال الكاملة)، ط3، دار العودة، بيروت، 1979م.

2- عبد الوهاب البيّاتي رائد الشعر الحديث، (مجموعة من المؤلفين)، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 1958م.

3- مقالة في الأساطير، طراد الكبيسي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1974م.

4- ينابيع البياتي، (آراء - شهادات - مختارات)، إعداد وتوثيق: علي القيِّم، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1999م.

5- زمن الشعر والشعراء، فاروق شوشة، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2000م.

6- مدن ورجال ومتاهات، عبد الوهاب البياتي، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1999م.

7- الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش، د. ميشال خليل جحا، دار العودة ، بيروت، 1999م.

8- اتجاهات الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1978م.

9- قوافي الحب والشجن، تقديم: د. عبد القادر القط، كتاب العربي رقم (42)، 15 تشرين الأول 2000م.

10- البحث عن ينابيع الشعر والرؤيا، عبد الوهاب البيّاتي، محيي الدين صبحي دار الطليعة، بيروت، 1990م.

11- مشاهير وظرفاء القرن العشرين، هاني الخيّر، دار الكتاب العربي، دمشق - القاهرة، 1993م.

12- من أعلام الفكر العربي والعالمي، سليمان سعد الدين وهاني الخيّر، دمشق، 1990م.

13- مجلة التضامن العدد (293) 1999/8/9م.

14- مجلة العربي العدد (636) نوفمبر 2011م.

15- الأرشيف الشخصي للصحفي هاني الخيِّر.



الفهرس